يا ابنتي

الياس خليل زخريا

★

« مهداة الى ابنتي الكبرى « كاتيا » التي ظفرت امس في احدى المباراة العامة (الادبية – الجغرافية – التاريخية) بين طلاب لبنان الثانويين وطالباته بالاولية مع كأس فضية ، ومدالية ذهب ، وعقد اخضر ، ورحلة طائرة في بعض نواحي الارض على المقلب الثاني من افياء البيت » .

★ ★ ★

يورق الغصن فتخضر ارض الدار
يكبر الحلم فتتجسد البركة
ينمو العطاء فتغتبط مفاصل النفس
وهذه السادسة عشرة من سبحة الزمن في عمرك النضر هي فرحة العين في فسحة التضرع .

وتسأل عينه اليمين عينه الشمال عن تلك الصغيرة التي كانت النحيلة ، الفارقة في النحافة ، تحمل بشفتيها ، وجبهتها ، وجدائل شعرها الطويل امل **البيت كله** .

... كيف كانت امها تحنو عليها حنو انامل الضوء في الغدو على حبات الطيب ، وتطري طراوة الماء على عطش السبيل الدائم .

وكيف قسا عودها ، فعلا ، وسمق ، وتملى .

وكيف امتد وجهها فتفكر وتأمل ، ثم تعمقت مقلتها فتمحى عليها في الشجى طرف الليل اللين .

وتجدلت جدائلها فاطلت بمآقي الزهر على كتفها المشرقة الرضية .

ثم كيف تفتح كتابها فتعددت صفحاتها ، وتعاركت فيه النزوات ، وتشابكت القضايا ، وبرزت قصة النوتي الهارب من قاعات بيته في خلجان القرية البحرية الى سرداب بعيد ضيق ، او قد يكون ضيقا ، من سراديب المجهول في طموح القادر .

حكاية الظمآن الذي ملت نفسه تدفق النهر الصاخب فانسابت على الوحشة الى ساقية من سواقيه في الاطراف البعيدة من زواياه النائية .

ثم كيف ثارت ابنته متمردة فيه على ظله .

★

... حتى كتبه ، كتبه الكثيرة العديدة ، التي عاش حلقات عمره بين اوراقها البيضاء والصفراء فقد ثقلت كلها على نهاراتها ولياليها حتى صارت كتبا عتيقة قديمة ، قرضتها قارضة الزمن ، فهي لا تروي فيها ظمأ ولا تطفىء خطا ولا تطوي فاصلة ولا تنبسط في خيال .

حتى اسمه ، اسمه نفسه الذي بناه على الحرمان، بحبات من الدم ، والعرق ، والماء المقدس وعزيمة الانفة ، وهمة الاندفاع .

فقد سقط في هوامشها المنسية على حافة الباب ومسقط السرير وشبه شفقة في خجل البنوة .

كانت لا تخطو خطوة الا ويدها في يده ... ولا تأكل اللقمة الا اذا سواها لها على الزاد والدلال في ساعة الرضى والحنان .

... ولا تقرأ الحرف الا اذا علمها كيف تفتح شفتها على شفتها الاخرى وكيف يمتد نفسها في امتداد السطر ، وينقبض في انقباض الجمل على حرارة المعنى وبرودة الانسياق .

وكانت لا تنام الا اذا ربت كتفها وغمر بالقبل راسها الساهر من شدة النعاس والقلق .

★

وتكبر ولم يكبر معها .

وتتمرد على ذاتها ولا يتمرد فيه شيء على شيء من ذاته .

تخالها انطلقت وحدها من الغيب .

تخالها انبثقت مبهما من مبهم .

وتخالها كانها لم تعد ابنته ، ولم يعد ذلك الذي كانت تلقي براسها على فتحة صدره خوفا من الشبح النائم في طرف الهمس على تحرك الكرسي او نبأة النافذة .

عجبا كيف يكبر الصغير ويصغر الكبير ؟!

كيف تصبح السنديانة العالية غرسة طرية جديدة تعصف في وجه الريح دونما وجل ، حتى اذا سألتها الشجرة الباسقة ، امها ، عن الشتاء الذي تتكسر اضلاعها على اضلاعه تململت في التذمر وغرقت في الصمت واستخفت بالاعمدة العالية .

ويا ابنتي

علمتني امس ، وانت عائدة مع كأس الغلبة الى البيت في مدخل المساء كيف يكون الغصن اكبر من الشجرة ، وحبة الماء اكبر من البحر ، والولد اكبر من

الذكر الحسن

هالني أن اسمع الناس يرددون قول الشاعر العباسي أبي فراس الحمداني :

معللتي بالوصل ! والموت دونه　　اذا مت ظمآنا فلا نزل القطر

دون ان يعلموا الحالة النفسية التي كان فيها الشاعر عندما نظم رائيته الخالدة

اذا مت ظمآنا ، فلا أنحبس القطر　　ولا مات انسان صدى، وامحى العمر
ولا جف نبت في البلاد جميعها　　ولا عم محل بين أنيابه الفقر
ولا عطشت وحش الفلا ، وظباؤها　　ولا تاق في روض الى طله زهر
فان كان ماء القلب ينقذ مدنفا　　منحت دمي كيما يشد به الازر
لأقضي نحبي بعد ذلك راضيا　　بتضحيتي ، والطرف يبسم والثغر
فبدء حياة المرء من بعد موته　　اذا طاب في الافواه من فعله الذكر
وقد يصرع الورد المضرج خده　　ويبقى لدى الانسام من روحه العطر
ولو لم يجد زهر الربيع على الورى　　بأنفاسه ، ما بث أطيابه النشر
ولو لم يصر جسم السحائب أدمعا　　ليحيي الانام البر ، ما نبت البر
ولو لم يذب أهل القريض عقولهم　　لما فتن الدنيا بابداعه الشعر
وحين يضحي أسد فتح بروحهم　　سيقبل مختالا على العرب النصر
فما هذه الدنيا سوى الجود عابقا　　يهيم به التاريخ ، والمجد ، والدهر

صيدا ـ لبنان

محمد العدناني

ابيه ، والابنة المسرعة اكبر من امها الكبيرة .

احست امس ان الدنيا التي لا تثمر الثمر الطيب هي الدنيا المقفرة ، وان الرمل المحرق على الشمس الضائعة في مجاهل الصحراء هو الرمل الذي يعطش فيموت وحده في لهيبه وعطشه .

وان الغمامة التي لا تمطر هي الغمامة التي تذوب مع العمى في مجاهل الفضاء .

ويا انتي

نمت امس كما ينام النسر .

عين على القمة ، وعين على ذروة الجوزاء وجناح يصفق فوق في نعمة الظفر .

ويوم تضرعت ، فتحت صدري على اربع قبلات :

... واحدة طبعت على جبهتي كما تطبع الشمس لونها على زرقة العقل وجزيرة المحبة .

... وواحدة غناها قلبي كما يغني الماء السقسقة في جانبي الجدول الحالم في الجبل الحالم .

... وواحدة سكبتها يد العطاء على عتبة بيتي كما سكبت يد الايمان في ساحة الحي قبة الجرس المتعالي في قبة الكنيسة .

... وواحدة ابتدعتها اصابع الرقة والاناقة على حدائي العذب كما يمتد الاذان في الصباح المبكر الى مسامع الكون المتلفت .

اربع اغان غنتها لنا الدنيا على قيثارة الامل .

ويا ابنتي

ونسري ، وبيتنا على الشرفة ، وصدرنا على الشمس ، وقدمنا على الظلمة .

تحركي ، تحركي بنا ايتها الحكاية القديمة .

في خشبات السقف عنقود من التفاح والعنب

في طاقة القبو صرة من الفضة والاساور

في بئر الدار دلو صافية باردة

في كتاب السواعي الكبير اعمار مكدسة على اعمار

ويا ابنتي

اعقدي على عنقك هذا العقد الهندي الاخضر .

لم تحب امك من اللون الا اللون الاخضر

لم يغن ابوك في الارض من الارض الا الشجر الاخضر الممتد على الشجر الاخضر .

اسالي الربيع ،

فقد نسجتك امك بأناملها على صدري في ليلة من ليالي السخاء زنارا اخضر على خصرك القوي .

اشدك ولا اعيا

اضمك ولا اشبع

الياس خليل زخريا



الدكتور احمد الشرباصي

جولة مع ياقوت الحموي الاديب

بقلم الدكتور احمد الشرباصي

* * *

على الرغم من المحامد التي نلحظها في شخصية ياقوت (*) ومع عرفانه حقوق سواه ، واقراره بفضل من سبقوه عليه فيما كتب والف ، نجد فيه نزعة الاعتزاز بالذات والافتخار بالاعمال ، فنحن مثلا نجده يفاخر بكتاب «معجم الادباء » ، وينوه بقيمه الكبيرة اوضح تنويه ، فيقول عنه : « ولو انصف اهل الادب لاستغنوا به عن المأكل والمشرب » . ثم يشير الى انه يخشى ضياع قيمة هذا الكتاب لسببين : اولهما انحراف الناس عن الحق وتوهمهم ان المملوك الرومي لا يستطيع الاتيان بشيء عبقري ، والسبب الاخر هو تقاصر همم الناس عن بلوغ مراتب الشرب التي تعرف صاحبها قيمة العمل الشريف ، وانكارهم الفضل على صاحبه . وكأن صاحبنا يريد ان يقول انه ليس هناك ما يمنع اتيانه بما لم يأت به ابناء جنسه من قبل . ولنستمع اليه هو يقول عقب ما قدم مشيرا الى كتابه :

« ولكني اخاف ان يأتيه النقص من جهة زيادة فضله ، وان يقعد بقيام جده عظيم خطره ونبله ، واستشعر له امرين ، منبعهما من قلة الانصاف ، واجتناب الحق والانحراف ، احدهما ان يقال : هل هو الا تصنيف رومي مملوك ؟ وما عسى ان يأتي به ، وليس في ابناء جنسه له نظير ، وما كان في امته رجل خطير ؟ لاستيلاء التقليد ، على العالم والبليد ، فهم لاينظرون الى ما قيل ، انما يسألون عمن قال ، ونمم العون للعالم القئول ، حسن الاعتقاد والقبول .

والامر الاخر قصور الهمم ، الغالب على اكثرهم ، اذ كل همه تحصيل المأكول والملبوس ، ولا تسمو همته الى تشريف النفوس » .

ولقد كان ياقوت الحموي ذا صفات تقربه من حمى الادب ، وتصله بركب الادباء ، فهو رقيق العاطفة مرهف الحس ، يحمل نفسا زكية دراكة ، لا يدالس ولا يصانع ، يصدع بالحق ، ويصدق في الرواية ، ويقول ما يؤمن به ، رضي الناس ام كرهوا .

ولقد مرت به بعض التجارب العاطفية التي استجاب لجيشانها ، فصاغ فيها شعراً يدل على صدقه في تصوير ما مر عليه وشعر به ، فهو يحدثنا عن نفسه بأنه نزل في سنة ٦١٣ هـ مدينة نيسابور ـ ويقال لها الشاذياخ ـ فاستطابها، وصادف بها من الدهر غفلة خرج بها عن عادته.

وهناك اشترى ياقوت جارية تركية جميلة ، بلغ من جمالها ان ظن ياقوت ان الله جل جلاله لم يخلق اجمل منها ، واحبها ياقوت واحبته . يقول : « ثم ابطرتني النعمة فاحتججت بضيق اليد فبعتها ، فامتنع علي القرار ، وجانبت المأكول والمشروب حتى اشرفت على البوار » .

واشار عليه بعض الناصحين بأن يسترد الفتاة ممن اشتراها ، ويرد عليه ما دفعه ، وحاول ياقوت استرجاعها مجتهدا بكل ما يملك فلم يستطع ، لان الذي اشتراها كان ذا مال واسع ، وهو ايضا قد احب الجارية ، وصادفت من قلبه اكثر مما صادفت من قلب ياقوت ، ولكن الفتاة كانت تطوي قلبها على حب عنيف جارف لياقوت ، على الرغم مما فعل ، فطلبت ممن اشتراها ان يعيدها لياقوت ، والحت في طلبها حتى عاقبها .

وندم ياقوت لما فعل ، وتفجع لما حدث ، واستجاب لعاطفته وحنينه الى محبوبته ، فقال في ذلك شعرا لعله اجمل ما رأيناه لياقوت ، وهو شاعر مقل يتكلف النظم احيانا كما سبقت الاشارة الى ذلك . قال ياقوت :

ألا هل ليالي الشاذياخ تؤوب ؟ فاني اليها ما حييت طروب
بلاد بها تصبي الصبا، ويشوقنا الـ شمال ، ويقتاد القلوب جنوب
لذاك فؤادي لا يزال مروعا ودمعي لفقدان الحبيب سكوب
ويوم فراق لم يرده ملالة محب ، ولم يجمع عليه حبيب
ولم يحد حاد بالرحيل ، ولم يزع عن الالف حزن ، او يحول كئيب
أئن ومن أهواه يسمع أنتي ويدعو غرامي وجده فيجيب
وابكي فيبكي مسعدا لي ، فليلتقي شهيق ، وانفاس له ، ونحيب

(*) انظر عدد مارس ١٩٦٩ من مجلة الاديب .

على أن دهري لم يزل مذ عرفته يشتت خلان الصفا ويريب
الا يا حبيبا حال دون بهائه على القرب باب محكم ورقيب
فمن يصح من داء الخمار، فليس من خمار خمار للمحب طبيب
بنفسي أفدي من أحب وصاله ويهوى وصالي ميله ويشيب
ونبذل جهدينا لشمل يضمنا ويأبى زماني ، ان ذا لعجيب
وقد زعموا ان كل من جد واجد وما كل اقوال الرجال تصيب

وبعد ان يورد ياقوت القصة بعبارته في « معجم البلدان » يقول عقب شعره : « ثم لما ورد الغزالي خراسان ، وفعلوا بها الافاعيل في سنة ٥٤٨ هـ قدموا نيسابور فخربوها واحرقوها ، فتركوها تلالا ، فانتقل من بقي منهم الى الشاذياخ فعمروها ، فهي المدينة المعروفة بنيسابور في عصرنا هذا ، ثم خربها التتر لعنهم الله في سنة ٦١٧ هـ ، فلم يتركوا بها جدارا قائما ، فهي الان فيما بلغني تلول تبكي العيون الجامدة وتذكي في القلوب النيران الخامدة » .

وما دام حديث الشعر عند ياقوت قد جاء ، فلنتذكر انه كان مقلا للشعر ، وغلبت عليه الكتابة عن الادباء والعلماء والبلدان واللغة والتاريخ ، فاستبدت بأكبر جهده ، ولعله وجد في السجع نوعا من العوض عن الشعر ، ولذلك نراه يأتي بالسجع حتى في خلال حديثه التاريخي المحض ، ومن هنا لم يتفجر ينبوع الشعر القوي الاصيل عند ياقوت ، فهو يتكلف القطعة من الشعر هنا ، أو يتعب فيها هناك ، وان اجاد احيانا فيه اجادة من يستعين بعقله وتفكيره اكثر من استعانته بلهب عاطفته واتقاد شعوره .

ومن شعره الابيات التالية التي يتغزل بها فيمن رمدت عينه ، فوضع عليها عصابة سوداء . قال ياقوت :

ومولد للترك تحسب وجهه بدرا يضيء سناه بالاشراق
أرخى على عينيه فضل وقاية ليرد فتنتها عن العشاق
تا الله لو ان السوابغ دونها نفذت ، فهل لوقاية من واق ؟

وأسلوب ياقوت يمتاز بالمتانة مع الوضوح ، وان كان السجع يشيع فيه ، وكثير من هذا السجع حلو مستطاب لا يعاب ، وبعضه تبدو فيه الصنعة المتكلفة ، وهو في تراجمه يميل الى الاختصار والايجاز ، الا مع بعض الاشخاص الذين يرى لهم مكانة تستوجب البسط والتفصيل ، وهو ذو قدرة على تلوين هذه التراجم ، بذكر مراحل الحياة ، وتواريخ الولادة والوفاة ، وما يتعلق بالنسب والاسرة ، والتعليم والاساتذة ، والاشعار والاخبار ، والكتب والاثار . ولكننا نلاحظ افاضته وتطويله في طائفة من رسائله وكتاباته .

ولعل احسن نموذج يعرض امامنا اسلوب ياقوت وسجعه الطويل النفس هو تلك الرسالة التي وصف فيها احواله ومتاعب حياته ، ووجهها الى الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الواحد الشيباني القفطي وزير صاحب حلب حينئذ ، وتوسع توسعا شديدا فيما أورده من مدح فيها . وهذا هو صدر الرسالة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ادام الله على العلم واهليه ، والاسلام وبنيه ، ما سوغهم وحباهم ، ومنحهم واعطاهم ، من سبوغ ظل المولى الوزير اعز الله انصاره ، وضاعف مجده واقتداره ، ونصر الويته واعلامه ، واجرى باجراء الارزاق في الافاق اقلامه ، واطال بقاه ، ورفع الى عليين علاه ، في نعمة لا يبلى جديدها ، ولا يحصى عددها ولا عديدها ، ولا ينتهي الى غاية مديدها ، ولا يفل حدها ولا حديدها ، ولا يقل وادها وديدها .

وادام دولته للدنيا والدين ، يلم شعثه ، ويهزم كرثه ، ويرفع مناره ، ويحسن بحسن اثره اثاره ، وينير نواره ، ويضاعف انواره ، واسبغ ظله للعلوم واهليها ، وللآداب ومنتحليها ، والفضائل وحامليها يشيد بمشيد فضله بنيانها ، ويرصع بناصع مجده تيجانها ، ويروض بيانع علائه زمانها ، ويعظم بعلومه الشريفة بين البرية شأنها ، ويمكن في اعلى درج الاستحقاق امكانها ومكانها .

ويرفع بنفاذ الامر قدره للدول الاسلامية ، والقواعد الدينية ، يسوس قواعدها ، ويعين مساعدها ، ويهين معاندها ، ويعضد بحسن الايالة معاضدها ، وينهج بجميل المقاصد مقاصدها ، حتى يعود حسن تدبيره غرة في جبهة الزمان ، وسنة يقتدى بها من طبع على العدل والاحسان ، يكون اجرها ما دام الملوان ، وكر الجديدان ، وما اشرقت من الشرق شمس ، وارتاحت الى مناجاة حضرته الباهرة نفس .

وبعد ، فالمملوك ينهى الى المقر العالي المولوي ، والمحل الاكرم العالي ، ادام الله سعادته مشرقة النور ، مبلغة السول ، واضحة الغرر ، بادية الحجول ، ما هو مكتف بالاريحية المولوية عن تبيانه مستغن بما منحتها من صفاء الاراء عن امضاء قلمه لايضاحه وبيانه ، قد احسبه ما وصف به عليه الصلاة والسلام المؤمنين : (وان من امتي لمكلمين) وهو شرح ما يعتقده من الولاء ، ويفتخر به من التعبد للحضرة الشريفة والاعتزاء .

وقد كفته تلك الالمعية عن الاظهار المشبه بالملق مما تجنه الطوية ، لان دلائل علو المملوك في دين ولائه في الافاق واضحة ، وطبيعة سكة اخلاص الوداد باسمه الكريم على صفحات الدهر لائحة ، وايمانه بشرائع الفضل الذي طبق الافاق حتى اصبح بناء المكارم متين (١) ، وتلاوته لاحاديث المجد القريبة الاسانيد بالمشاهد لديه مبين ، ودعاء اهل الافاق الى المغالاة في الايمان بامامة فضله الذي تلقاه باليمين ، وتصديقه بملة سؤدده ، الذي تفرد بالتوخي لنظم شارده ، وضم مبدده بعرق الجبين ، حتى قد اصبح للفضل كعبة ، لم يفرض حجها على من

استطاع اليه السبيل ، ويقتصر بقصدها على ذوي القدرة دون المعتر وابن السبيل ، فان لكل منهم حظا يستمده ، ونصيبا يستعد به ويقيده ، فللعظماء الشرف الضخم من معينه ، وللعلماء اقتناء الفضائل من قطينه (٢) ، وللفقراء توقيع الامان من نوائب الدهر وعض جفونه ، وفرضوا من مناسكه للبهجة الشريفة السلام والتبجيل ، وللكف البسيطة (٣) الاستلام والتقبيل » .

وجاء في ختام الرسالة ما يلي :

« والمملوك الان بالموصل مقيم ، معالج لما حز به من هذا الامر المقيم ، يزجي وقته ، ويمارس حرفته وبخته ، وتكاد تقول له باللسان القويم : « تا الله اني لفي ضلالك القديم » .

يذيب نفسه في تحصيل اغراض ، هي لعمر الله اعراض ، من مصحف يكتبها ، واوراق يستصحبها ، نصبه فيها طويل ، واستمتاعه بها قليل ، ثم الرحيل .

وقد عزم بعد قضاء نهمته ، وبلوغ بعض وطر قرونته (٤) ، ان يستمد التوفيق ، ويركب سنن الطريق ، عساه ان يبلغ امنيته من المثول بالحضرة ، واتحاف بصره من خلالها ولو بنظرة ، ويلقى عصا الترحال بفنائها الفسيح ، ويقيم تحت ظل كنفها ، الى ان يصادفه الاجل المريح ، وينظم نفسه في سلك مماليكها بحضرتها ، كما ينتمي اليها في غيبتها ، ان مدت السعادة بضبعه ، وسمح له الدهر بعد الخفض برفعه .

فقد ضعفت قواه عن درك الامال ، وعجز عن معاركة الزمان والنزال ، اذ ضمت البسيطة اخوانه ، وحجب الجديدان اقرانه ، ونزل المشيب بعذاره ، وضعفت قوى اوتاره ، وانقض باز الشيب على غراب شبابه فقنصه ، وتبدلت محاسنه عند احبابه مساوىء وخصصة (٥) ، واكب نهار الحلم على ليل الجهل فوقصه ، واستعاض من حلة الشباب القشيب خلق الكبر والمشيب :

وشباب بان مني ، وانقضي … قبل ان أقضي منه أربي
ما أرجى بعده الا الفنا … ضيق الشيب على مطلبي

ولقد ندب المملوك ايام الشباب بهذه الابيات ، وما اقل غناء الباكي على من عد في الرفات :

تنكر لي مذشبت دهري، فاصبحت … معارفه عندي من النكرات
اذا ذكرتها النفس حنت صبابة … وجادت شئون العين بالعبرات
الى ان أتى دهر يحسن ما مضى … ويوسعني من ذكره حسرات
فكيف ولما يبق من كاس مشربي … سوى جرع في قعره كدرات
وكل اناء صفوه في ابتدائه … ويرسب في عقباه كل قذاة

والمملوك يتيقن انه لا يتفق لهذا القدر الذي مضى ، الا النظر اليه بعين الرضا ، ولرأي المولى الوزير الصاحب ـ كهف الورى في المشارق والمغارب ـ فيما يلاحظ بعادة مجده ، مزيد مناقب ومراقب ، والسلام (٦) . »

مع الرسالة

هذا جزء من رسالة ياقوت الحموي الى الوزير علي ابن يوسف القفطي ،وهي رسالة طويلة ممتدة ، وقدحرص **ابن خلكان على نقلها بأكملها حين ترجم لياقوت في الجزء** الثاني من كتاب « وفيات الاعيان » ، ثم قال بعد اتمامها : ولقد طالت هذه الترجمة بسبب طول الرسالة ، ولم يمكن قطعها . » **اي ان ابن خلكان لم يشأ ان يسوق ترجمة ياقوت دون أن يسوق معهاهذهالرسالة بتمامها** ، مع ان **حجم الرسالة بالنسبة الى الترجمة التي اوردها لياقوت يزيد على الضعف .. ونستطيع ان نضيف في تسويغ** اثباتها ان عصرها الادبي قد عرف الكثير من الرسائل ككتاب « صبح الاعشى » للقلقشندي فنجد نماذج لرسائل **مطولة .**

فنحن نستطيع ان نقول ان هذه الرسالة تعطينا ملامح عن كتابة الرسائل في عصرها من نواح كثيرة ، فالوقوف عليها ، مع دراستها ، يعاون على التعرف الى طائفة من هذه الملامح ، وهذا التعرف يسهم في وضوح الدراسة لهذا العصر .

وقد كتب ياقوت رسالته الى القفطي من مدينة « الموصل » بعد هروب ياقوت من هجمة التتار ـ وكان حينئذ في خوارزم ـ وهو يصف فيها حاله ، وما جرى له معهم ، وكان ذلك سنة ٦١٧ هـ .

ويظهر ان الوقت الذي كتب فيه ياقوت رسالته كان اشد مرحلة من حياته مرت عليه ، اذ تعرض فيها لاكبر محنة اصابته ، وهي ابتلاؤه بهجوم التتار ، وخروجه من خوارزم فزعا مجردا من كل شيء ، نادبا ما كان فيه من عيش رغيد ، وما تعرض له الاسلام والوطن من احتلال وعدوان ، ولذلك ركز ياقوت تركيزا واضحا على وصف حالته الشديدة في هذه المدة في رسالته الى القفطي .

ولقد اشار ابن العماد الحنبلي صاحب « شذرات الذهب » حين ترجم لياقوت في الجزء الخامس من كتابه الى قسوة هذه الشدة ، فقال عنه : « ووصل الى خوارزم ، فصادف خروج التتار ، فانهزم بنفسه ، كبعثه يوم الحشر من رمسه ، وقاسى في طريقه من الضائقة والتعب ، ما يكل اللسان عن شرحه ، ووصل الى الموصل ، وقد تقطعت به الاسباب » .

ويخبرنا ياقوت انه بعد ان كتب هذه الرسالة سنة ٦١٧ هـ احجم عن اطلاع القفطي عليها : « اعظاما وتهيبا ، وفرارا من قصورها عن طوله (٧) وتجنبا » حتى اطلع

---

(١) التقدير : وايمانه متين بشرائع الفضل ... الخ . والعبارة فيها تعقيد . (٢) قطينه : موطنه . (٣) البسيطة : المبسوطة بالعطاء . (٤) قرونته : نفسه . (٥) خصصة : فقر وحاجة . (٦) تراجع الرسالة بأكملها في معجم الادباء ، ج١ ص ٢٤ ـ ٣٩ طبعة دار المأمون . (٧) الطول : ـ بفتح فسكون ـ الفضل والسعة . وتطول عليهم : أمتن . (٨) الحرفة : ـ بضم فسكون ـ الحرمان . والحرفة : ـ بكسر فسكون ـ الصنعة . والسدفة : الظلمة ، والطائفة من الليل .

عليها جماعة من منتحلي الادب . وتهافتوا على نقلها . فتشجعه ذلك على عرضها .

ولا يتضح امامنا سبب لهذا الاحجام الذي اعقبه الاقدام ، واطلاع هؤلاء على الرسالة لا ينهض دافعا مقبولا الى هذا الاقدام ، فلعل ياقوت « يلف ويدور » بذكر هذا.

ونحن نلحظ بيسر ان صاحبنا مفتون بمدح القفطي، موسع في الثناء عليه ، ملح في التقدير له ، فهو يترجم له ترجمه واسعة في نحو ثلاثين صفحة من معجمه ، ويذكر تفاصيل بعضها غير مهم عن اسرته وابيه وامه وطفولته ، وهو يضفي على القفطي في رسالته اليه مجموعة من الالقاب الفخمة ، والعذر غير بعيد من هذه العاده ، فيذكر عنه هذه الالقاب : « الوزير ، القاضي الاكرم ، وزير صاحب حلب والعواصم ، المولى ، المقر العالي المولوي ، المحل الاكرم العلي ، الحضرة الشريفة ، الجناب الشريف ، مقر العز اللباب ، الفضل المنيف ، المولى الوزير الصاحب ، كهف الورى في المشارق والمغارب » .

وهو يكرر له الدعاء موقرا ، بمثل قوله : « ادام الله علوه » . وقوله : «اطال الله بقاءه » . وقوله : « ادام الله عزه » .

ويصف ياقوت اجتماعه بخدمة القفطي في حلب ، فيورد في ذلك عبارة تفيض ثناء جما ، يقول فيها : « اجتمعت بخدمته في حلب ، فوجدته جم الفضل ، كثير النبل ، عظيم القدر ، سمح الكف ، طلق الوجه ، حلو البشاشة ، وكنت الازم منزله ، ويحضر اهل الفضل وارباب العلم ، فما رأيت احدا فاتحه في فن من فنون العلم ، كالنحو واللغة والفقه والحديث والقرآن ، والاصول والمنطق ، والرياضة والنجوم والهندسة والتاريخ ، والجرح والتعديل ، وجميع فنون العلم على الاطلاق الا قام به احسن قيام ، وانتظم في وسط عقدهم احسن انتظام » .

ومن مظاهر اعزاز ياقوت للقفطي واجلاله لمكانته انه اهدى اليه كتابه « معجم البلدان » ، فاطال في عبارة الاهداء ، واثنى كثيرا ووأسعا عليه ، ويظهر ان القفطي كان صاحب فضل كبير على ياقوت ، حيث انقذه من متاعبه ، وآواه الى جناحه ، واحسن اليه واكرمه ، وافاء عليه الغامر الباهر من معروفه وبره ، وها هو ذا ياقوت يقول :

« ثم اهديت هذه النسخة بخطي الى خزانة مولانا الصاحب الكبير ، العالم الجليل الخطير ، ذي الفضل البارع ، والافضال الشائع ، والمحتد الاصيل ، والمجد الاثيل ، والعزة القعساء ، والرتبة الشماء ، الفائز من المكارم بالقدح المعلى ، المتقلد من المكارم بالصارم المحلى ، امام الفضلاء وسيد الوزراء ، السيد الاجل الاعظم ، القاضي جمال الدين الاكرم ، ابي الحسن علي بن يوسف ابن ابراهيم بن عبد الواحد الشيباني ثم التيمي ، حرس الله مجده ، واسبغ ظله ، واهلك نده ، ونصر جنده ، وهزم ضده ، اذ كنت منذ وجدت في حل وترحال ، ومبارزة للزمان ونزال ، اسأل منه سلما ، ولا يزيدني الا هضما :

فلم، قضت نفسي من السير ما قضت ‏ ‏ على ما بلت من شدة وليان

بعد طول مكابدة حرفة الحرفة (٨) ، وانتظار تبلج ظلام الحظ يوما من سدفة :

علقت بحبل من حبال ابن يوسف ‏ ‏ أمنت به من طارق الحدثان

فرد عني صرف الدهر والمحن ، ورفه خاطري عن معاندة الزمن ، لما :

تغطيت عن دهري بظل جناحه ‏ ‏ فعيني ترى دهري ، وليس يراني

فأصبحت من كنفه في حرز حريز ، ومن احسانه وتكرمه في موطن عزيز :

فلو تسأل الايام عني لما درت ‏ ‏ وأين مكاني ؟ ما عرفن مكاني

اذ كان ــ ادام الله علوه ــ علم العلم في زماننا ، وعين اعيان اهل عصرنا واواننا ، واعدت اليه ما استفدت منه ، وروى عني ما رويت عنه ، فأحسن الله عنا جزاءه ، وادام عزه وعلاءه ، بمحمد وآله الكرام » .

وعندي ان ياقوت الحموي قد اسرف في المدح ، وتوسع في الثناء على القفطي ، وليس معنى ذلك ان القفطي غير جدير بالثناء ، ولكن ياقوت خاط من الثناء الكثير حللا فضفاضة ، لا يفهم القارىء المنصف منها ارادة التقدير من ياقوت للقفطي ، وانما يفهم منها تلمس اسباب الزلفى الى الوزير المتمكن من جاهه ، وان كان هذا امرا ربما يستساغ من طالب قوت او مستجدي عطاء ، فانه لا يليق بياقوت المعجب بنفسه المدل بمكانته بين الناس .

ولعل لنا عودة الى بقية حديث عن ياقوت .

القاهرة ‏ ‏ ‏ ‏ احمد الشرباصي

جفاف

ملاوات ضاعت بها ذكرياتي
كأن ليس لي قط من ذكريات
كأن ليس يعمر قلبي هوى
وليست تهز شعوري الحياة
أجف جفاف السواقي بواد
يخد بأرض عراء موات
طوى الظما المستجيش ثراه
فغرغر في أعيني ثم مات

احمد ابو سعد

وراء السراب

من ديوان « أفواف الزهر »

✶

وكنت .. وكنت .. وكان الهوى — على غفوة من رصيد القدر
وكنت أنا عنك في غفلة — اخالك من بعض هذا البشر
ولم أك بعد سوى غرة — وان كنت جاوزت حد الصفر
وأحسست في خافقي هزة — تلاشى كياني بها وانحسر
وألفيتني غير تلك التي .. ! — وأنكرت امسي كأن قد غبر
وتهت أنا في ضباب السنين — وغامت رؤى .. وتجلت صور
وأنكرتني وأنا لم ازل — على الدرب أبحث لي عن أثر
ودربي على سبيل سوي — سوي به الصعب والمنحدر

وقلت لعيني ثم انثنيت — تكاتمني بعض ما قد ظهر ..
وقلت لعينيك ثم انطويت — على السر ادفنه في حذر ..
ومست يداك يدي للوداع — ومرت ليال وجاءت أخر
وعز علينا اللقا فانثنيت — ولا أمل ثم او مصطبر ..
وخب بنا الركب .. ركب الزمان — يباعد ثم يعفي الأثر
وما زال يسعى بنا سعيه — أما آن ان يرعوي أو يقر

وكنت .. وكنت .. وكان اللقاء — على غفلة من رقيب القدر
وقلت لقلبي .. فكان الجواب — تنمتمه خلجات النظر
ومست يداك يدي للبقاء — على العهد ما امتد فينا العمر
واقسم قلبي يمين الولاء — وآلى على نفسه ان يبر

وكنت .. وكنت .. وكان الفداء — لقلبك قلبي .. وضاع العمر
وعشت على الوهم دنيا هراء — وخلب برق وطيفا يمر
أقول عسى ولعل الرجاء — يطالعني عبر هذي الصور
وما زلت .. الهث أقفو السراب — ولما يلح نبعي المنتظر

جامعة بغداد — عاتكة الخزرجي

ألقت الجريدة الصباحية من يدها بسرعة .. وبدات تهيء نفسها لمغادرة مكتبها ..

وفي الطريق .. ازدحمت الافكار في ذهنها .. وزحفت عليها مشاعر مختلفة من القلق والحيرة .. والاستياء ..

واستقلت (تاكسي) .. وانطلق بها ..

في رحاب الجامعة .. وامام مبنى كلية الآداب .. وقفت «كريمة» تلتهم في عصبية الكشوف المعلقة التي تحمل اسماء الناجحين والناجحات في (الليسانس) .. وما كادت تطالع اسمها في قائمة الناجحين حتى خارت قواها ..

ولما أفاقت .. طافت بنظراتها فيما حولها .. فوجدت نفسها في غرفة مشرفة الكلية ..

وانفض الجمع المحتشد الذي كان يلتف حولها داخل الغرفة للاستفسار عن صحتها .. وبعد ان احتست « كريمة» بعض الماء من الكوب الذي قدمته اليها المشرفة .. قالت بصوت رقيق :

ـ شكرا لك يا اختاه .. ماذا حدث بربك خبريني ؟

فلاحت على شفتي المشرفة بسمة مشرقة اعطت لسمرتها جمالا هادئا واجابتها :

ـ لقد اغمي عليك .. ووقعت على الارض ونقلت الى هنا .. وانا أسألك بدوري عما اذا كان لهذه الحالة سبب تعلمينه .. ام هي ازمة تلح عليك من وقت لآخر ؟

فقالت لها « كريمة » والدموع تملأ عينيها :

ـ الحقيقة أن هذه الازمة الاولى التي اتعرض لها .. ولعل مفاجأة النجاح كانت السبب المباشر لذلك .. اما وراء هذا النجاح فله قصة .. هل لديك متسع من الوقت لاقص عليك طرفا منها ؟

ـ سأكون سعيدة اذا ما سمعت قصتك .. حتى اشاركك فصولها.

واعتدلت « كريمة » في جلستها وبدات تروي فصول قصتها في ايجاز :

ـ كنت زوجة سعيدة كل السعادة .. يرفرف الحب علينا بجناحيه.. وكل يوم يمر بنا كنا نعتبره يوما جديدا من « شهر العسل » .. وكان زوجي يعمل محاميا في شركة .. يعمل من الصباح الى المساء وعندما يعود متعبا من كثرة العمل .. ومن زحمة المواصلات .. كنت اخفف عنه الكثير واعوض تعبه بكل ما في وسعي ..

وقد فاتحني زوجي بعد الشهور الاولى من حياتنا الزوجية في ان

قلادة من شوك

بقلم رستم كيلاني

التحق بأحدى المدارس الليلية لمواصلة تعليمي الثانوي الذي توقف بسبب الزواج واعتكافي بالمنزل لمباشرة الواجبات التي تفرضها ظروف البيت الذي انا ربته .. وحينما افهمته انني ربما لا أوفق في الجمع بين البيت والاستذكار.. اصر على موقفه وقال لي :

ـ لا بد لك من مواصلة التعليم وازجاء وقت الفراغ فيما يعود عليك بالخير الذي احبه لك .. واعتقد ان مهارتك ستجعلك موفقة بين المدرسة والبيت ..

ولذلك .. قبلته شاكرة صنعه..



وبدات حياتي الدراسية من جديد..

وكان زوجي يقوم دائما بمساعدتي في استذكار دروسي وتقويتي في اللغات الاجنبية التي كان يجيدها أجادة تامة .. اذا ما سمحت له الظروف بذلك ..

وكنا قد اتفقنا معا خلال حياتنا الزوجية على عدم الانجاب لفترة زمنية معينة حتى تتهيأ لنا الظروف التي تسمح لنا بالانجاب ..

مرت ثلاث سنوات .. وفي الشهور الاخيرة من السنة الدراسية الثالثة .. شعرت بتغير غريب طرا فجاة على تصرفات زوجي .. السهر حتى منتصف الليل .. عدم مساعدتي في استذكار دروسي .. متعللا بأوهى الاسباب .. ولم يقتصر الامر على ذلك بل بدأ يتخلف عن مشاركة غدائنا ظهرا كما تعودنا ..

ثم اهتمامه بمظهره الخارجي بصورة تبعث في الشك .. ومما أثار ظنوني خاصة وقد اهملني من كل حق من حقوقي الزوجية .. وأضحى البيت امام عيني مقبرة .. والعيش جحيما لا يطاق .. اذ احسست بالفراغ الهائل يجثم على صدري ويطوق جيدي بقلادة من شوك ..

ولشدة حبي له كنت أخشى ان أسأله عن سبب تغيره .. خشية ان يغضب مني او يثور في وجهي .. وحتى آخر لحظة من حياتنا .. كنت واثقة منه كل الثقة .. الى ان جاء ذلك اليوم .. وآه من ذلك اليوم لقد غير كل شيء فقد أحال حياتي الى نار موقدة وصيرها رمادا تعبث به رياح الياس واعاصير الظنون ..

آه من ذلك اليوم الذي سألت فيه عنه .. في كل مكان اعرف انه يلجأ اليه ويطمئن لديه .. ثم الشركة التي كان يعمل فيها .. فلم اجده وعلمت بأنه منذ ثلاثة اشهر قد الغى كل ما يتصل بعمله المسائي ..

وبدأت الغيرة تحوم حول ذهني وتلهبني بسوط من العذاب .. وشبح الثانوية العامة يطرق باب احساسي ومشاعري .. والوساوس تطاردني من هنا وهناك .. الامتحان يقترب .. يقترب.. وبدأت تخيفني اطياف الحرمان .. ولما فاض بي الكيل .. ولم يعد هناك محل للصبر .. ثرت .. صارحته بكل شيء ..

وعلمت وقتئذ سبب ذلك الجفاف العاطفي الذي دمر حياتنا المنزلية فلفني الذهول وانقبض قلبي عندما فاجأني قائلا .. بانه خدعني عندما تزوجني .. فلقد كان زوجا لاخرى وقد انجب منها طفلة ولظروف خارجة عن ارادته طلقها وترك معها طفلته الرضيع .. وتزوجني واقسم انه رأى السعادة معي في خلال الاعوام الثلاثة ..

ثم التقى بها بعد كل هذه المدة الطويلة من الاعوام .. وفي الطريق ومعها الطفلة .. ابنته التي غدت حسناء .. عاد الحنين اليه من جديد .. ومن ثم فكر في الرجوع الى زوجته الاولى من اجل حياة افضل لهذه الصغيرة ... وعاد بالفعل الى زوجته الاولى ..

وعندما قلت له : وانا ..

ــ انني اعرف ظروفك القاسية .. واقدرها ولكن ظروفي المالية لا تسمح بأن اعول اسرتين ..

ــ اذن افهم من ذلك انك تنوي طلاقي ..

ــ نعم كذلك .. بكل اسف ..

ــ لقد فكرت في نفسك فقط .. ولم تفكر في .. ماذا فعلت لك لادفع الثمن غاليا ولوحدي .. كيف اواجه الناس .. واين اعيش ؟ انك تعرف ان امي مريضة بمرض لم تشف منه الا لتعيش بقية عمرها في ظلامه العاتي .. وزوجها .. ينفق عليها كل قرش يدخل جيبه .. انني لا اسمح لنفسي ان اعيش معهما بهذه الصورة فيكفي زوج امي ما ينفقه عليها .. وغير المتاعب التي حلت به من أجلها ...

وبكل قسوة صرخت في وجهه قائلة :

ــ الى اين اذهب .. اين اذهب ؟

وقد رد زوجي في هدوء عميق وواجه ثورتي بابتسامة عريضة وقال :

ــ انني لن أطلقك الآن .. وانت على ابواب امتحانات .. سأقف بجانبك حتى تنجحي هذه السنة الدراسية وتؤهلك شهادتك لعمل مناسب ترتزقين منه .. ثم ..

وكتمت انفاسي بشهقات ..



رستم كيلاني

•

وغادر البيت ..

وعشت اسبوعا في حيرة .. وقلق المصير المجهول الذي ينتظرني.

ودست على كرامتي .. وظللت اذاكر .. كنت اذاكر في همة .. وعزيمة قوية .. وبدأت الامتحان..

وانتهى اليوم الاول.. ويليه اليوم الثاني .. ثم اليوم الثالث ..

حتى جاء اليوم الاخير ..

وقبل نزولي الى لجنة الامتحان .. قال لي بصوت عال :

ــ لقد تحملت الكثير من اجل مصاريف دراستك .. فكفى ذلك .. اليوم حاولي ان تتصرفي وان تذهبي الى والدتك ..

فقلت له :

ــ لقد وعدتني انك ستقف بجانبي حتى انجح هذا العام ..

ــ كنت مخطئا في اصدار قولي .. ان ابنتي في امس الحاجة الي اكثر منك ..

وغلى الدم في عروقي.. وهبطت الدرج وكأنها مطارق تعمل في راسي ..

وفي اللحظات الاخيرة من الامتحان تسمر القلم في يدي .. وعجزت عن متابعة الاجابة على الاسئلة .. وتوقف ذهني .. فالقيت رأسي بين يدي ومرت امام عيني الاحداث كشريط سينمائي يعرض حياتي .. والطريق المظلم الذي ينتظرني .. ولفني الذهول لحظات ..

ثم بدأت دموعي ساخنة تنساب من عيني .. وتتساقط على كراسة الاجابة ولبثت على هذا الوضع لحظات حتى شعرت بيد رحيمة تربت على كتفي ...

فالتفت الى مصدرها.. فوجدت يد مراقب اللجنة .. كان رجلا ازهريا ملتحيا .. فيه هيبة .. وعليه وقار ..

وسألني عما بي ..

فوجدت في صوته الخافت الذي نفذ الى قلبي .. طمأنينة القلب وسكينة الروح .. وحنان الابوة التي حرمت منها سنوات حياتي ..

وحينما بدأت اقص عليه طرفا في كلمات سريعة من مأساتي هذه .. نظر الى ورقتي وقال لي :

ــ انك اجدت في الاجابة على ما مضى من الاسئلة واعتقد ان ما بقي منها تستطيعين الاجابة عليه بسهولة . فلديك قدرة واستعداد وبعد مغادرة اللجنة سأستمع الى قصتك.

وكان هذا الحديث المنساب في حنان بالغ قد اعاد الي الثقة بنفسي .. فطردت الاشباح الكئيبة التي

ارض الضنا

عرفتك فانكببت على جروحي
وبــدون رحمه
وبكل عنف ، كل نقمة
رحت اقتنصت طريدتي بيدي جريح
وبدون قلب دون روحي
شوهت ـموجوع الحشاـ وجه الذبيحة والذبيح
وبدون قبر او ضريح
تركت لتنهشها وحوش الطير في أرض الضنا
كانت أنـا

والتف حبك كالافاعي
فـوق التياعي
وامتص ماء العين مني والذراع
فصفرت حتى في ضياعي

وبكيت نفسي ، حاضري ، مستقبلي ، كل المضاع
ونشجت حتى لم يعد في ناظري ماء لساع

نظراتك الخضراء كانت لي بحيرة أمنيات
فهجرت حتى ذكرياتي
ومنحت برعمك الصغير هواي مزهو الهبات
وغرقت في عينيك، في شفتيك، في كل السمات
وفقدت امسي، حاضري، مستقبلي، معنى حياتي
فهجرت كالاعشاش في ليل الخريف
فمشى الشتاء لناظري ، الى يدي ، الى حروفي
فقصصت أجنحتي وعدت من الهوى بفم مدمى
لا املك الصبر الكبير ، ولا عن الآلام أعمى

بغداد — صفاء الحيدري

أحاطت بي .. وبدأت في استكمال الاجابة .. وبعــد الامتحــان .. لحقت بالشيخ فــي فناء المدرسة ورجوته في سماع قصتي .. ومـا ينصحني به ..

وبعد ما انتهيت من رواية قصتي .. او مأساتي .. مرت لحظة صمت .. ثم قال بصوته الرحيم :

ـ عليك بالصبر يــا ابنتي .. وخذي معك رقم تليفون منزلي .. وحاولي الاتصال بي غدا .. فربمـا يوفقنا الله عز وجل الى مــا فيه الخير ...

وبسرعة كتبت رقم التليفون .. على ورقة الاسئلــة .. وشعـرت براحة عميقة ..

وفي اليوم التالي تـم طلاقي .. وعدت الى بيت أمي مــن جديد .. وزوجها .. واتصلت في نفس اليوم بالشيخ ـ الاستاذ المراقب ـ الذي توسط لي فيما بعد فــي أن أعمل بالشركة التي انا فيها الآن وقد كنت موضع رعايته حتى الآن ..

وظللت فترة من الزمن في عذاب مرير .. وقلق دائـــم .. وقمت أشارك في اعباء البيت المالية قـدر ما استطيع .. حتى لا احمـل زوج أمي اكثر من طاقته ..

وقد تلاشى العذاب .. والقلق .. شيئا فشيئا .. وذلك بعد اعلان نتيجة الامتحـــان .. بنجاحي .. والتحقت بكلية الآداب ..

ومضت اربـع سنوات .. بـين الوظيفة.. واعمال التمريض لامي.. التي عانيت فيها اعمق الآلام .. بعد أن تركت لنا هذه الام الدنيا بمـا حملت ورحلت الى حيث الامان الى الرفيق الاعلى ..

لم يتسرب الي الملل .. او تهون من عزيمتي مصيبة الموت .. وبرودة الفراغ الذي يحيط بي .. فواصلت ما قطع من حبل المذاكرة ولم أفرط في دقيقة يمكن ان انفقها فيتحصيل الدروس عــلى المستوى الــذي يرضيني ..

فتحح كتاب .. واغلق كتاب .. وكانت عناية الله معي .. ونجحت هذا العام بدرجة الامتياز ..

وسكتت « كريمة » ثم استطردت قائلـة :

ـ انني لا أنسى فضل ذلــك الشيخ الذي بعث في الحياة بعد أن كاد تتذوي .. كما انني لـن انسى بالرغم مما لقيت من مشقة وعـذاب فضل مطلقي الذي جعل مني انسانة متعلمة ..

فقاطعتها المشرفة قائلــة فـي استغراب ..

ـ اتقولين فضل مطلقك بعد ذلك العذاب الذي سببه لك ..

فسكتت « كريمة » برهة ولمعت الدموع في عينيها :

ـ نعم .. لن أنسى ان صاحب ذلك العذاب هو الذي شجعني فـي بادىء الامر على مواصلة تعليمي .. كما كان طلاقه لي حافزا قويا دفعني الى مواصلة تعليمي ايضا .. رغـم تلك الظروف النفسية التي احاطتني .. فلقد كان قلادة من شوك تطوق عنقي ، ولكنها في النهاية اهدت الي زهرة النجاح ..

القاهرة — رستم كيلاني

سـليم عـازار

بقلم شكر الله الجر

* * *

من طبيعة هذا الجبل المتمرد لبنان ، انه مصاب بمرض الطموح ، فكلما خفق في اوكاره جناح اطلقه للرياح ! وكاني به ، اخذ على نفسه عهدا ، بان يغرس في كل زاوية من زوايا المعمور زهرة من زهور تربته ، او غصنا من اغصان ارزته .. حتى لكأنه « مشتلة » فتيان يوزعهم على جهات الدنيا الاربع ، ليكثروا وينموا ويتركوا في ارحام الشعوب قطرات من دمهم فتتبلور انسال وتزكو عبقريات ..

وليس ذلك بالحدث الجديد في تاريخنا نحن اللبنانيين . بل هذا دابنا منذ عهد الملاح الاول ، الذي خرج بسفينته من على هذا الشاطىء الفينيقي يرود بها بحار العالم حتى يومنا الحاضر .

قوافل وقوافل من شبان هذا الوطن جرفتهم يد الاقدار الى المزبد الهدار ، فراح ينثرهم في كل رقعة من شمالي الارض وجنوبها . منهم من اسعده الحظ فعاد الى اهله وبلدته ، ومنهم من قسا عليه الدهر فأغمض عينيه في ارض هجرته .

ومن الذين ، ضاعت بهم عين الزمن على وسعها ، فحطمت سفينتهم على صخرة الاغتراب ، كان الشاعر البائس سليم عازار ، وليد القرنة الخضراء وهزارها الصداح في عهده .

ما قدر لي ان اعرف الشاعر وجها لوجه ، اذ بين غروب شمسه عن الدنيا واطلالتي على فجر الحياة مسافة من الزمن ، بيد اني لا اراني غريبا عنه ، وقد شدتني اليه آصرتان قويتان ، آصرة الشاعرية ، وآصرة الاغتراب ، وما يعانيه المغترب من غصص الحنين الى قومه وبلاده ، وما تجتره السنون من قلبه واعصابه ، وكفى بتينك الاصرتين شافعا يقيم له في نفسي ضجة من لواعج لاجدد من ذكره وانشر مناكب الجمال خصلا من شعره .

واني لاتمثله في خاطري وهو يتقلب على فراش الضنى في مدينة « حلوان » منزويا كئيبا يصارع الامه ويودع احلامه ، باكيا حظه من الحياة ، وفي قلبه حسرة وعلى لسانه هذه الندبة .

فواحربـا علـى حـظ كجنح الليـل ـ واحربـا
ووأسـفـا علـى أدب يـزيـد تعاسـة الادبـا
بعصر ذلـل الادبــاء حتـى ذلـل الادبـا
فليتـي لـم انـل ادبـا وليتـي لـم أر الكتبـا
وهذا بعض مـا اشـكو فمش رجبـا تـر عجبـا

اجل هذا ما شكاه سليم من دهره وزمانه ، وهو كل ما شكاه ويشكوه ادباء هذا الشرق في امسهم الغابر ويومهم العابر ..

كان اول ما علق في خاطري من شعر العازار وانا في عهد طفولتي الادبية هذه الابيات التي اوحت الي في حينها بأن وراءها شاعرية فذة وشاعر مبدع .

جـار الزمـان فصرت يا نفسـي تتقلبيـن تقلـب الطقس
آنـا علـى امـل واونــة في اليـاس او اشـقى من الياس
عودي الى الماضـي فقد عبست لمـا عبست معاهـد الانس
اولا فكونـي كيف شـئت ومـا شـئت افعليـه فليس من يـاس
لا خيـر فـي مـن ليس ذا ثقـة من نفسـه افهمـت يا نفسـي

واستمرت هذه الابيات على صورتها الشفافة اليائسة تراود ذهني على مرور الايام ، لا اعرف لصاحبها شعرا سواها ، الى يوم عودتي من غربة جاوزت الثلاثين عاما ، واذا بي اقع على نتف من شعره موزعة على شفاه ادباء القرنة الخضراء ، وكأنها نتف الغمام على الاغصان ، فأقبلت بشغف عليها ، لما فيها من براءة وجمال قطفها الشاعر من ربيع قلبه ، ولعلها اصدق واصفى ما نبع من شاعريته في فجر شبابه .

وكم كان امتناني عظيما الى بعض الادباء من انسباء الشاعر ، اذ بسطوا لدي مجموعة صغيرة من شعره لاختار منها باقات ملونة ، اضعها بدوري على مائدة الادب الكبرى ، لينشق منها شباب اليوم عبير آلرومنسية المنعش ، لعلها تعود بنا الى عصرها الزاهر قبل ان يقضي جفاف الرمزية على العاطفة الاثيرية في النفس اللبنانية ؟

اجل لقد جاءتني قصائد الشاعر من يد كريمة امينة كما ذكرت ، وهي تقفز في حقول الزمن ، بعد غفوة طويلة في الضباب فمسحت عن وجهها غبار الليالي وتركتها تتكلم .

فكنت وانا مصغ الى بثها ونجواها ، احس كأن خيال صاحبها يلازمني ، ويدور من حولي ويتفرس في وجهي ، فرحت اربت على كتفه ، واداعب خصل شعره المذرور على جبينه ، وهو يبتسم ويقول « ليتني عشت الى ايامكم والتقينا » . قلت : « لو صح ما تشتهي وعشت الى ايامنا يا صاحبي لتمنيت الموت باكرا هربا من بربرية الانسان بأخيه الانسان ... » . قال : « ربما كان لي ما اقول واكثر من القول في عصركم العجيب الغريب » .

قلت : « نم هانئا في سمائك .. ان ما قلته لكثير بالنسبة الى خطواتك القصيرة على وجه الارض ، وهذا القليل الذي تركته من اشعة روحك في السطور لن

(*) سليم عازر ولد في « غرزوز » من منطقة « بلاد جبيل » في لبنان عام ١٨٨٥ وتوفي في مدينة حلوان من اعمال مصر عام ١٩٠٨ .

يزول ، وما ارخيته من ظلالك على جبين الادب لن يمحى .

ثلاث وعشرون سنة في عمر الزمان هي لا شيء .

انها ومضة برق عابر – انها باقة زهر عاطر ، انفرطت من يمين الشاعر على ضفة نهر الموت ؟! ولكنها عنده هي كل محصوله من الدنيا . انها لاطول من الزمن وابعد .

« ولم أر بين الناس طرا كشاعر يعيش باعمارالنجوم ولا يدري »(١)

لقد جاء في اناشيد طاغور شاعر الهند الاكبر « ان الشاعرية بذرة سقطت من السماء على الارض فنمـا بنموها الزمان واخصب المكان » .

ومن نعم الاقدار انه يوم تقسيم الفنون الجميلة ، على ابناء هذا الجبل الملهم لبنان ، شاءت ان تخص القرنة الخضراء من منطقة بلاد جبيل ببذرة من تلك البذور المباركة ، فأطلعت لنا نجوما في سماء القوافي قد ينكسف نور الشمس ولا ينكسف نورها وتنكفىء ينابيع الارض عن جريها ولا ينكفىء عن مسمع الدهر خريرها .

ومن شعراء القرنة هذه ، من اطلق جناحيه وطار ، فنزل ديارا غير هذه الديار ، ومنهم من لزم داره يدوزن اوتاره وينفخ مزماره ، ويغزل قوافيه من نياط قلبه وسواد عينيه .

وبينما كان فريق من ابناء « جبيل » ينقب في بطن الارض عن مخابىء الذهب ، كان فريق آخر من سكان مشارفها العالية ينقب في بطون الكتب ، عن معدن هو اسمى بكثير من الذهب واعني به الادب وهو تراث الامم المجيد وطريقها الى الخلود .. فقد تنقرض شعوب ، وتدول دويلات ، وتنزلق في دهاليز التاريخ اباطرة واكاسرة فلا يبقى سوى الادب خالدا .

« ليس من خالد وقد تذهب الدولات – غير البيان وابن البيان » (٢)

كان لشاعرنا في اوائل شبابه نزوات حرى ومطامع كبرى تضيق عنها بلاده الصغرى . فعصفت بصدره عاصفة الاغتراب كسواه من فتيان هذا الجبل وهو الاديب المثقف المتوثب حماسا ، المتطلع الى افاق جديدة وعوالم جديدة يكون فيها للحضارة البشرية لمعاتها وللمواهب العقلية وثباتها فيمم الولايات المتحدة الاميركية التي كانت وما برحت كعبة القصاد وقبلة رواد العلم في العالم ، وغايته الاولى ان يكمل في جامعاتها دراسة الطب التي بدأها في جامعة بيروت الاميركية وهناك في ولاية « نيو جرسي » حل ضيفا عزيزا على اخيه الذي سبقه اليها بسنوات فكان لاطلاله على الجوالي العربية في تلك الاصقاع هزة من الطرب ، لا سيما ابناء لبنان ممن انفقوا ايامهم في تلك المهاجر النائية ، وما برحوا يحنون حنينهم الى وطنهم القديم ويحملون في قلوبهم وخيالهم صورا جميلة عن ايامهم فيه . فهللوا للزائر الاديب يحدثهم عن لبنان ويبهرج الحديث ، فاحبوه وانزلوه من احداقهم ونفوسهم منزلة التقدير ، لا سيما بعد ان قرأوا له في الجرائد العربية هناك بعضا من نفثاته الشعرية مثل جريدة « الهدى » و « مرآة الغرب » وسواهما من الصحف .

ونظرا لميوله الادبية الغلابة تحول عن طلب الطب الى الصحافة فأصدر جريدة « الزهرة » التي ما لبثت ان احتجبت عن العيان بعد جهاد ضنك وحرمان .. وكأني بالشاعر العربي الذي قال :

« وعند صفو الليالي يحدث الكدر » ما كان ليعني نفسه فحسب ، بل كان يعني الكثيرين سواه من رجال القلم والالم ، وفي جملتهم شاعرنا . اذ بينما كان يرتع مطمئنا الى اوساط اميركية مثقفة يجيد لغتها ، والى جالية لبنانية ينعم بتقديرها وعطفها ، تقطب له فجأة جبين الدهر وسدد اليه سهامه منتزعا اخاه من يديه ، فاغتم غمه وحزن حزنه عليه وان هي الا فترة حتى ظهرت على شاعرنا اعراض داء خبيث ، راح ينهش قواه ويقوض صباه ، فاستهول الاطباء امره ، فأشاروا عليه بالعودة للاستشفاء في مدينة حلوان من اعمال مصر ، وهي المشهورة بجودة مناخها ، يلجأ اليها المصابون بداء الصدر ، فلم ير المسكين بدا من الاذعان ، فترك الولايات المتحدة محطم النفس والجسد ، يرسل مع الغمائم السائرة في الفضاء تنهداته ويبث نجوم الليل حسراته وعيناه متجهتان الى حيث غيب احلامه ودفن مع اخيه في تراب الغربة اماله . ومن قوله :

ودع العالم الجديد كئيبا بدلا من وداعه بابتسامه
تاركا فيه لليالي حبيبا غيب الموت في ثراه عظامه

ما افجع احكام الاقدار واقساها . أمن غربة موجعة الى غربة اوجع ! من لبنان الى اميركا ، ومن اميركا الى حلوان ومن حلوان الى ظلمة القبر .

ما لهذا الغريب لا ينكفىء عن البكاء ، ما لهذا الشاعر البائس اينما مشى وكيفما اتجه يتعقبه شبح الموت يذرع في طريقه ضريحا بعد ضريح .. لقد غيب في تراب لبنان حبيبة كانت البسمة على شفتيه .. ثم غيب في تراب الغربة اخا كان ومضة الامل في مقلتيه ثم عاد يراوده عن نفسه قائلا له : لن يطول فراقك عن الحبيبين ؟ ها هو يتقلب على فراش السقم والسأم يئن انينه ويحن حنينه الى مشارف القرنة الخضراء ، الى ملاعب الطفولة والصبا مستعيدا ذكريات ايامه الزاهرة ، ولياليه الساهرة في بيوتها العامرة بين فتيات هن كالملائكة طهرا وجمالا . وفتيان هم حرس العفاف حولهن .

هذه هي « غرزوز » العزيزة وما حولها من مزارع وقرى جميلة تهدر في خياله وتتمايل بين سمعه وبصره عرائس مجلوة في مواكب عزها ، ومهرجانات شعانينها ، ومباهج اعيادها وزغاريد افراحها . وكأني بها تهتف في

(١) من قصيدة لشكر الله الجر .
(٢) من قصيدة لشكر الله الجر .

روعه وتناديه ليعود اليها ـ الى ساح لهوه فيها ولكـــن هيهات .. لقد حالت الايام بينه وبينها وبين مجالس الشعر في لياليها فنسمعه يقول :

انفقت صفوي ولم اذخر لآخرتي   الا التسلي بيا ايامنا عودى
وقد تعودت ان القى أسى بأسى   كالسيل يضرب جلمودا بجلمود

هذا شعر ايها القارىء الكريم منذ سبعين سنة خلت يوم لم يكن لشاعر من شعراء الشرق العربي حتى ولا شعراء لبنان مثل هذه الطلاوة والحلاوة في الشعر . وله ايضا من قصيدة تحس في كل بيت من ابياتها بوحشة الاغتراب:

رقد العالمون وانتصف الليل   ومالت نحو المغيب الثريا
وانا جالس اداعب اوراقي   ولم يطرف الكرى مقلتيا
والسكون الرهيب خيم حولي   ودوي الوجود في أذنيا
وبنفسي في العظائم ما عنه   عوادي الايام غلت يديا ؟
اينام المحب يفعل فيه   الوجد والاذكار فعل الحميا
امن العدل ان تنام عيوني   وعيون الزمان ترنو اليا

وكم في قوله « عيون الزمان ترنو الي .. » من الجمال والخيال وعذوبة التعبير . الى ان يقول :

أمن العدل ان انام وغيري   لم يزل ساهرا يفكر فيا
وله في افتكاره زفرات   تقطع الازرق الخضم اليا

لا اعلم وايم الله من هي تلك العيون الساهرة التي كانت تفكر فيه أعيون امه وابيه ام عيون صحبه ومحبيه . والذي اعلمه انني امام قطعة من الشعر الرومنسي الخالد، شعر الحنين المنبجس من قرارة القلب ، فلا حزلقة بيانية، ولاالفاظ لفوية ، والشعر كما اعرفه اذا لم ينطلق انطلاق النسيم من جوانب الافق ، ويتحدر تحدر الجدول من شقوق الجبل ، وينساب انسياب المياه في الاقنية ، فعبثا يسميه الناس شعرا ويسخرون له المقرظين والمصفقين .

واذا شئتم ان تقرأوا او تلمسوا صورة دقيقة عن نفسية المراة ـ اطفلة كانت هذه المرأة ام غادة غيداء فاليكم بهذه اللوحة الفنية يقدمها لنا الشاعر عن طفلة لم تزل في السنة الثالثة من عمرها قال . تحت عنوان (مداموزيل ايجني في الثالثة ..)

عدوت الشباب وجزت الكبر   وبنت ثلاث أرتني العبر
جمال النساء وما في النساء   من المستحب عليها استقر
يذكرني وجهها وجه من   احب فامعن فيه النظر
فتنفر مني نفور الغزال   ويبدو عليها حياء الصغر
ألاعبها تارة بالكعاب   وطورا ادحرج معها البكر
وكل قليل اقبل فاها   من الاثنتين الى اثني عشر
ولا ينتهي الدور حتى أعود   الى الابتداء كما ينتظر
فلا انثني بين ضم وشم   الى ان يلوح عليها الضجر
اقول لها الحب لكن تحاول   حبا فاعطي لها ما حضر
وما زلت أجني القبلات منها   وتجني الذي في جيوبي استتر
الى أن رأت انها افرغتها   ولم يبق للحلو فيها أثر
فقامت تسير بدون وداع   كأن ما لها بوجودي خبر

الى آخر ما في القصيدة من عمق وجدة ووصف دقيق لطبيعة الانثى مما لم يسبقه اليه شاعر من شعراء زمانه . ومن المضحك ان صفيرته تلك بعد ان اغترفت ما في جيبه من قطع الحلوى اعرضت عنه كأن لا علم لها بوجوده ـ وهذا شأن الكثيرات من نساء هذا العصر وفتياته ؟

ثم يعود الشاعر ليتفقد طفلته تلك وما آلت اليه حالها بعد حفنة من السنين فاذا بها وقد شارفت الرابعة عشرة من العمر تضج حيوية الصبا في حركاتها ولفتاتها وكأنها الوردة تتفتح اكمامها لفجر جديد ، فعاد ليصفها لنا في زهوة جمالها ويحدثنا عن خلجات قلبه لدى مرآها ، وقد تبدلت نظرتها اليه ونظرته اليها ، وكيف كان يخشى لقاءها ، وعندما يقترب منها يحس دبيب الغرام يسري في عروقه وينثر الجمر في طريقه . وكيف لهذا الشاعر الحساس ان يقوى طويلا على الصمت وبين يديه تلك الدمية المفناج يطفر شعاع الحب من كل ثنية من ثناياها ، فراح يبثها هواه ، ويسكب على قلبها وفي سمعها نجواه ، وقد وجد لديها اصغاء على حذر ، وتجاوبا على خفر ، فكان لنا من جراء ذلك الموقف الرائع قصيدة جاءت طرفة الشعر في ايامها .. قال :

بي من فارقتها ولدا   تحمل الابواق والزردا   أبدا
مر عهد وأتى عهد   وكسا وجنتها ورد
وقليلا برز النهد   واستوى واعتدل القد   وندى
حقق الدهر بها ظني   وغدت كالبدر في السن
بقوام فاضح الفصن   يكتسي من زاهر الحسن   بردا
كنت قبلا حين القاها   لا اني انشق رياها
فلماذا صرت اخشاها   والاقي عند مرآها   كمدا
ان بدت فارقني حسي   او مضت اسلمت لليأس
او دنت أذهلت عن نفسي   ودمي حالا الى رأسي   صعدا
اكذا مبتدأ الحب ؟   ان تراني ضائع اللب
هائما في البعد والقرب   وكأن الجمر في قلبي   وقدا
كان ان رافقتها حينا   نجمع الصبح الرياحينا
فتذكرنا ليالينا   وزمانا ذكره فينا   خلدا
وجلسنا في حمى الطهر   ساعة من نعم الدهر
واذا فاح شذا العطر   نسج الريح على النهر   زردا
قلت والاشجان تعبث بي   انا آه اهواك يا أربي
أخذت كفي ولم تجب   فكأني عدت من طربي   ولدا
لاصقتني فتشجعت   معصما كالعاج قبلت   ويدا
ثم وثقتنا عرى الود   ودخلنا خيمة العهد
وتفارقنا على وعد   وعلينا برعم الورد   شهدا

واقف هنا لاشير الى ما تحدث به الناس يومذاك عن ان يدا قاسية فرقت بين الحبيبين فاعتلت الفتاة من غمها فأطلقت حمامة الحياة من صدرها وعادت الى ربها .. وهنا يقول الشاعر :

بينما في غفلة الامل   بين سكرات الهوى الاول
فوجئت بالسقم والعلل   وعليها وافد الاجل   وفدا
اين مني راحة الفكر   اين القى عصمة الصبر
ما هي الغاية من عمري   وحبيب القلب في القبر   رقدا

وبعد اذا لم يكن لشاعرنا الفتى سوى هاتين القصيدتين في ديوانه الصغير لكفى بهما طرفتان تخلدان ذكره وتطبعان على مبسم الايام شعره .

ان انشودة واحدة تحمل في تضاعيفها ما تفجر من طاقات النفس وهمسات الروح في غيبوبة الرؤى شفافة البوح ناعمة الجرس لآثر عند الخلود من الف قصيدة لا طعم فيها ولا دسم .

وهذا ابن زريق البغدادي لم يترك لنا من شعره سوى قصيدة واحدة تسللت الينا من وراء العصور ذهبية الجدائل عطرية اللهاث مضمخة بعبير الموت .. وجه بها من الاندلس الى نجية احلامه في بغداد .. ما برح المفنون يفنونها على ضفاف دجلة الاوتار وتتمايل على نغماتها قدود العذارى الابكار .

وهذا « يوسف البعيني » الاديب المغترب لم يترك لنا سوى باقة واحدة من الشعر تنطوي علىذكريات طفولته وصباه في لبنان ضمنها كل شجوه وحنينه الى غابة الوزال والكرم والعزال في قريته « الهدينة » .

وهناك الكثيرون من شعراء الانسانية ممن اختصروا طريق الحياة ، ولكنهم تركوا على جانبيها بعض الزهرات، قال « امبرتو دي كامبوس » سيد الكلمة الانيقة في الادب اللاتيني ، وواحد من الاربعين خالدا في المجمع العلمي البرازيلي : « لا فرق لدي عشت العشرات من السنين ام قضيت غدا في الاربعين ، طالما ان لي كتابا واحدا يحدث الاجيال عني وينطق بلساني .. »

وهذا ما اقوله عن الشاعر سليم عازار وانداده من الشعراء ممن قصرت اعمارهم وعاشت اثارهم ـ امثال كيتس الانكليزي وده موسه الفرنسي وكاسترو الفيس البرازيلي ـ وابي قاسم الشابي التونسي ـ وابي فراس الحمداني السوري ـ وفوزي معلوف اللبناني .

ولو قدر لابن عازار وامتد به حبل الاغتراب الى يوم تأسست الرابطة القلمية في نيو يورك وهي الكوة المنورة التي تفتحت على العالم العربي في عهدها ، لكان من ابرز شعرائها تفني له شاعرية سخية ، وطلاوة بيانية ، اضف الى هذا ثقافة اميركية تنهمر انهمار الديمة على روحه من اجواء تلك البلاد الفنية بموارد الادب وخصب تربته .

ولكان لنا منه الى جانب جبران ونعيمه واحدا من حملة مشاعل الحكمة في عهده يؤكد لنا ذلك ما قرأناه في مجموعة شعره يوم لم يتجاوز العشرين ربيعا بعد . فهو يناشد الحكمة ويتوسل اليها بشغف ولذة لتضع في راسه ذلك المصباح الذي حمله من قبله سقراط وافلاطون وديوجنس وامثالهم من فلاسفة الاغريق قال مخاطبا اياها متغنيا بجمالها :

نحن نفني الزمان بغية	تقريبك منا وانت لا تقربينا
ونعاف اللذاذات واللهو ظنا	ان هذا يرقي سناك الينا
ثم لا نهتدي لنورك الا	بعد ان نرتقي ذرى السبعينا
وتخط السنون في الراس شيبا	والمشقات في الجبين غضونا
ولماذا ما كنت أيتها الحكمة	مع يوم خلقنا تخلقينا
ولماذا لا تجعلينا رجالا	حكماء الا اذا ما انحنينا
جئت سقراط قبلنا وسواه	فاناروا عصورهم والقرونا
وهم لو حجبت عنهم لكانوا	مثلنا في ضلالهم يعمهونا
انت يا معدن الرشاد ويا من	تعلمين الاشياء علما يقينا
ها انا في ربيع عمري اناجيك	وما كدت ابلغ العشرينا
سنوات افنيتها باحثا عنك	ففي أي موضع توجدينا

وكم هو جميل ان نرى شاعرا في مستهل عمره ومنابت زهره يتنفس بمثل هذه الروائع ، مناشدا الحكمة ان تمده بأسرارها ، وتضيء ليله بأنوارها ، وهو بعد طري العود ناعم الاملود ، ما اخضر عذاره ولا نضجت ثماره .. ولعل للبيئة التيولد في احضانها وسرح جناحيه على اغصانها فضلها العميق في تكوين شخصيته الحكيمة العاقلة . اجل تلك البيئة الجبلية الملفعة بالعفاف المتشحة بعباءة القناعة والكفاف ، وما تحلى به شيوخها من وقار في المشيب ، وتجارب في الخطوب هي ما انعكس ظلها على فتيان عصرها بما فيهم شاعرنا الحبيب .

والان يا سليم كما كنت تناجي في امسك الغابر ، الحكمة من بعيد ، اسمح لي ان اناجيك يا دفين (الكنانة) بعد مد طويل من الزمان فأقول :

ـلم تدر مصر يوم وارتك	الثرى غصنا رطيبا
اي الازاهر غيبت	في تربها فنزا طيوبا
لم ترثك الاطيار يوم	قضيت طيرا عندليبا
يبقى الغريب ولو قضى	في غير موطنه غريبا
حتى الربيع يكاد لا	يلقي على مثواه طيبا ..
لهفي على ذاك الشباب	الغض يلتحف المغيبا
أتضم ارض النيل من	اقمارنا قمرا حبيبا ؟.
ويظل ما بقي الزمان	هناك منفردا كئيبا
لا دمعة يلقي عليه	الارز او ظلا قشيبا
يا فلذة من شمسنا	لبست بحلوان الغروبا
سيظل نورك من وراء	الفجر يجتذب القلوبا
وعلى روابي القرنة	الخضراء منتشرا طيوبا

جبيل ـ لبنان

شكر الله الجر

الى الذين احبهم

لا تمسحوا القضبان بالالوان
وتزيفوا تقطيبة السجان
صدأ الحديد،على الفؤاد سواده
وجراحه محمومة الاشجان
سيان ، مزقني الحنين، ولفني
في الصمت، ليل عارم الاحزان
يا أيها الناس ، الذين أحبهم :
لا تقتلوا الانسان ، في الانسان

اللاذقية

نبيهة حداد

مـذبـح الحـب

في (باريس) عرفت الجمرة
وعرفت اللوعـة والحسره
وكرهت الراء الملثوغة في وحشية
تخفيها نظرة جنيه
تبديها همسة مأجوره
من بين شفاه مسعوره
فانـا شاعـر
لا يكفيه رواء الصورة
لا يرويه ضباب الجنس الاحمر
يهوى في الانسانية روح الشرق الاخضر
حس بلاد ترضع من انوار الشمس
حس جمال الحب الانسي
ويرى في غمزات الانثى
في (مقهى) أو من (سيارة)
او طرقات معتمة الاضواء سجينة
أفعى تلدغ انسانية كل الجنس !

في (باريس) جرعت الغصه
فكأني طفل محروم من أبويه
وتراءيت كلاب الصيد تهرول نحوي
تلعق من أقدام الطرق
لا تعرف معنى للفسق
تجري لاهثة لتعيش كلاب الصيد
من خفقات غريب أسمر
يستوحي (الكونكورد) قصيده
ويعيش خيالا ومثالا
يعشـق فكـره
ويرتل أشواق عقيده
وتراءيت جدار العزلة كالاسوار
يحجب عن عيني وميض النار
فكأني قنديل مطفأ
في حجرة أعشى أعزل سكير
نسيته قافلة النور !

في (باريس) شعرت بغربة روح ثكلى
أحسست بمصرع احلامي
فبناتك (باريس) سكارى عن أنغامي
في لحظات الحب المجلى
في أحضان قراصنة من سود بيض
وجنود قد جاؤوا ظمآنين لنهر (السين)
جاؤوا من غمرات نضال أزرق
فرغوا من ساح الاعدام الكبرى
فرغوا من مجزرة الحمقى
لليـال صاخبة الكأس
لنساء مشعلة الحس
لا تعرف سر المأساة
ببلاد الليل العربيده
في نظرتهم ضحكة هزء ، بسمة سخر
بحنين العاطفة الولهى
بدموع الشرق المفتون !

وأسير بشارعك الابيض اغسل يأسي
في شلالات ضوئية
و ((الفسقيات)) الاربع ترمقني
كعرائس بحر ذهبيه
في صفرتها لهفة أجوائي الشفقيه
أمسح من حبات المطر
عن نظارة طرف مسهد
أوذا ما يملكه الشاعر
في أفيائك يا (باريس) ؟
أهديتك لروحي العطشى لقمة جوع ؟
جرعة آل ؟!
يـا اسطورة
يـا اغنيـة
رددها حرمان بلادي
أشبعها الشعراء تهاويلا وغراما
يا سحرا يقتل ازهار سنيني
واعود كظل مسكين
وحـدي
أتلمس دربا لـ (المترو)
أحشر نفسي ما بين فئات بشرية
وأعود لفندقي الادرد
وحـدي
مثل الطيف المجهد !

الرياض حسن عبد الله القرشي

انها زوجتي

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي

* * *

كان يسير ساهم الوجه ، أشعث الرأس ، زائغ العينين ، يضرب كفا بكف ثم يرفع اصبعه الى فمه يكاد يقضمها في اسف ، وانا اعرفه انسانا رقيق الطبع ، جياش العاطفة ، دمث الحديث ، فهالني ان ألمح مظاهر ازمة حادة تأخذ بخناقه ، واعترضت طريقه لاسلم عليه تاركا يده في يدي دون ان اتيح له فرصة الافلات ، فصاح في غيظ نادم انهـا زوجتي انها زوجتي ! وانحدرت دمعتان ساخنتان على خده ، فلم اشأ ان اتركه وحده بل صحبته الى اقرب مقهى ، وجلست لاستمع وكان من عادة صاحبي ان يتحدث عن ادق خوالجه حديثا ان فقد الكياسة فقد صحب البراءة وقد اشعل لفافته ليطلقها انفاسا سريعة مضطربة ، في عصبية لا تدل على انه يستمرىء تبغا يشتهيه. ثم قال في أسف : انها زوجتي نقلتها صحيحة سليمة الى المستشفى . واستسلمت طائعة دون معارضة فأخطأ الطبيب موضع الجرح الذي لم يكن في حاجة الى علاج ، واصبحت المسكينة نهبا لالام مبرحة تستغيث صارخة من اثرها العنيف ! لقد كان الالم بمنأى عنها فصنعته بيدي .

قلت : يأخي – معاذ الله ان تقصد السوء بأحب الناس اليك فأنا اعرفك قوي الاخلاص ، تحب صاحبتك حبا قويا ، فناشدتك الله ان تشرب اللفافة في هدوء ، وان تحدثني عن صاحبتك هذه ، ولا تنس انها الان بمستشفى محترم وتحت عناية طبيب حاذق وان رحمة الله قريب قريب ! انس يا اخي مرضها المفاجيء لحظات وتحدث عن تاريخها معك حديث المحب العاشق ، فقد تذهلك الذكريات الماضية برهة ما عن المها الحاضر ، وهو خطب لا تملك دفعه الا بالصبر ! وانت تعلم ان الغيوم تتلبد في الافق ساعة او بعض ساعة ثم ينقشع الركام ويفيض الضياء ! تحدث يا اخي عن الماضي وسينتهي بك الحديث لا محالة الى الحاضر ، واذ ذاك استطيع ان افسر سلوكك الاخير حين صحبتها سليمة صحيحة الى مبضع الجراح ، فما اخال هذه الصحبة الاليمة حدثا طارئا ولكنها ثمرة لجذور تمتد في اعماق ماضيك ! وانا على شوق الى اكتشاف هذه الجذور الضاربة في الاعماق ، لا سيما وانت تنقل عن خاطرك الصادق دون لبس او تزييف ، فما عهدتك تصطنع مواربة ما لموقف خاطىء او تمويها مغرضا لزلل وقعت فيه ! تحدث يا اخي فانت باكتشاف اعماقك الغائبة ستقف امام رؤية واضحة تضمن الرأي المصيب .

وكأني بهذا الاستطلاع الكاشف صادفت رغبة قوية لدى صاحبي في البث والتنفيس ، فرمى اللفافة من يده ودنا بكرسيه قليلا الي ، وطفق يقول :

لقد رأيتها لاول مرة في ثوبها المدرسي صفيرة انيقة كبرعم يهم ان يتفتح ، فسألتها عن اخيها ، فأجابت في ابتسام بريء ، نفذ شعاعه الى قلبي ، وكان طريقها الى المدرسة يوافق طريقي ، فكنت استصبح ببراءتها الوادعة وانظر اليها في ميل هادىء لم افطن الى حقيقته بادىء ذي بدء ، حتى وجدتني اكاد استوحش الطريق اذا لم اطالعها في الصباح ، وشهدت طيفها الرقيق يعاودني في خلوتي فينعش وحدتي كأن شذى يهب به النسيم فجأة ، ولم اكن من اقليمها ، بل بين موطني وموطنها مئات من الكيلومترات ، ولكن الوظيفة ساقتني الى بلدها لتحتل قلبي فما تترك فيه منفذا لغيرها ، ولم اشأ ان اخاطب والدي في امرها ، فقد يكون بعد المكان مما يشيح به عن التأييد ، لذلك تقدمت الى والدها الكريم فصادفت قبولا مرضيا ، وعلمت ان الفتاة الرشيقة الصغيرة بعد حين ستنتقل الى منزلي لتصبح سيدة البيت ، فليس الامر بعسير .

زفت الي في مفتتح صباها الانيق ، فآنسني ان اصادف لديها بساطة لا تميل الى التكلف ، وصراحة لا تلجأ الى المراءاة بل كان لسانها مرآة ساطعة بخوالج احاسيسها ، وكنت قد انتزعتها من فصول الدراسة انتزاعا غير رحيم فرأيت ان اعوض ما فاتها من الدراسة الادبية . واخذت اشتري القصص الهادفة لنقرأها معا كخطوة اولى ، وقد اغتبطت حين وجدت الفن الروائي يستولي على اهتمامها ، فهي تقرأ وتقرأ في شغف ، وتحرص على ان تلخص لي ما تعيه في يسر سلس ، ثم لا تخلي حديثها من نقد لبعض المشاهد ، واحيانا تضع خطوطا رفيعة تحت سطور تهتم بها ، ولم تمض سنوات حتى استطاعت القصص الادبية ان تكسبها اسلوبا جميلا ، وان تمنحها بعض الافكار الثاقبة ! حتى خيل الي ان الادب الروائي المختار يصلح وحده أن يكون معلم النشء ، وقد كدت اعتقد ذلك امام هذه التجربة الملموسة ، ولكن من استجاب الى رأيي في تقديم هذه القصص لعزيزة لديه قد باء لديها بالفشل ! فادركت ان مواهب زوجتي قد ساعدت على ارتقائها الفني ! وان القصة الممتازة لا تثمر الا عند قارىء ممتاز !

واذا كانت شجرة الفن ذات اغصان متعددة ، فان الغناء كان اقرب هذه الغصون الى صاحبتي ، اذ رزقها

الله صوتا غردا يرسل ارق الالحان في ابداع . فما تكاد تصغي الى اغنية في الاذاعة حتى تؤديها اداء قريبا من الاصل في براعة نادرة ، والعجيب انها تقلد اكثر المطربات على تباين مشاربهن ، تقلد ذات الصوت الجهير الذائع وذات النغم الخافت الضارع ، وتنقل عن صاحبة الحماسة المجلجلة كما تنقل عن ذات الانين الهامس ! وقد تسمع الاغنية مرة واحدة فتحفظها كلاما ولحنا حتى ما تفوتها همسة خافية او نبرة مستترة ! كما ان نبوغها الفني يتضح كثيرا في تقليد الاصوات الشامية من سورية ولبنانية فما تكاد تسمعها حتى تظن انها وليدة هذه البقاع التي لم ترها فاذا انتقلت الى ام كلثوم مثلا حافظت على اداء سيدة الغناء .

ثم هي ذات وجه نبيل ، تقابل اقاربي واصدقائي ببشاشة ، وتصدر لاضيافي عن كرم سابغ ، فقد يطرقني الضيوف اياما متعاقبة ، وهي في كل يوم لا تتخلى عن مجهودها المكتمل ، وكان مما يغيظني منها انها لا تكتفي باليسير المعقول مما اعتاده الناس ، وحين اخالفها في ذلك ترسل من يشتري كماليات الطعام والشراب مؤكدة ان اللوم يقع عليها ، وان الاضياف يعذرون الرجل ويتجهون الى السيدات بالملام وقد حاولت ان اقنعها ان طعام المنزل مما يليق بالضيف مهما عز ، واننا لو حتمنا لكل طارق نمطا غاليا من الطعام لصعب علينا ان نقابل الناس في كل آن ، ولكنها تتمسك برايها في المغالاة وتعدها مما يكشف عن معدن الزوجة وبيئتها ، وقد نزلت على ارادتها فيما تشاء ، حيث لا فائدة عندها في هذه المسألة لاي نقاش وكثيرا ما كانت تحرجني اذ تطلب بعض النقود لما اعتقد ضروريا في ملبسها ثم افاجأ انها ذهبت لتشتري حلة جميلة راتها مما يليق بملبسي فأصرت على ان اكون المفضل عنها في الشراء ، فاذا عجبت وانكرت اظهرت ان ملابسها كثيرة وانها لا تحتاج الى جديد ! وهي كذلك مع اطفالها تؤثرهم بما يخصص لها وحدها مع انهم مكتفون ! ولا اذكر ان شجارا نشأ بيني وبينها الا فيما يتعلق بالخدم فأنا انسان اشفق من قتل البرغوث وسحق الصرصور ، ويسوءني ان اجد خادما يتألم في بيتي ، وبعض هؤلاء لا تستقيم امورهم الا بالشدة فاذا انسوا الى شيء من التساهل كان الاهمال المفرط ، والاحتيال الماكر وربة المنزل تعرف ذلك فتأخذ بأسباب الحزم ، وقد رايت بعد التجربة ان ادعها تتصرف كما تريد فان ابا تمام يرى من الحزم ان يقسو الانسان احيانا على من يرحم .

وانا كما تدري فتى اهفو الى القراءة والكتابة ، فما اكاد اتخفف من اعبائي الضرورية حتى امد يدي الى مكتبتي الحافلة بالقديم والحديث ، فأختار الدسم والسهل معا اقرأ في الدسم ما نشطت واستريح الى السهل ما عييت، وما يكاد الكتاب والقلم يتركان يدي في المنزل ، وفي ذلك مضرة بأنسها كزوجة وبأولادها كأبناء ، وكنت اتوقع في مبدأ الامر شجارا ونقاشا ، ولكنها لم تظهر ما يشي بالاعتراض الصامت ، فضلا عن الناطق ، فقد الفت ان تتركني وشأني ، وظللت غافلا عن تضحيتها الصامتة لا اقدرها قدرها حتى رزقت الاطفال ، فاذا هم الثائرون واذا بهم يصيحون بابا بابا !! في كل دقيقة قلم وكتاب !

وكثيرا ما تقع المفارقة اذ يعرض التليفزيون بعض الروايات الفنية مما قرانا بعضه من قبل ، فتخف قبل الموعد متهللة باشة تقول اننا سنسعد برواية عطيل او تاجر البندقية مثلا ، واكون غريقا في قراءة كتاب علمي لا احب ان افارقه فأعتذر عن المشاهدة اعتذارا ارى اثره العاتب في وجهها ، وكأنها تقول اذا كنت قد حببت الي قراءة الفن الادبي حتى الفته ، فمالك تعرض عنه الى حيث لا ادري من المجلدات ، ثم تنقضي السهرة فتدلف الى مكتبي لتحدثني عن موضوع المسرحية ان كنت غير ملم به ، وقد تتعرض الى نقد ما لا يروقها من المشاهد او حركات التمثيل فأصغي اليها مشجعا ملاطفا ، ولا زلت اذكر يوم عرضت مسرحية شهيرة عقب ضجة صحفية للدعاية لها ، فجاءت زوجتي الناقدة تشرحها تشريحا ناسفا ، وكنت متأثرا بما تقدمها من الضجة المفتعلة للاغراء فلم ابد تأييدا لما تعلن ، ثم طلعت الاهرام في الصباح بنقد دقيق يتضمن بعض ما سمعت من ملاحظاتها لناقد فني معروف! فلم يسعني غير الاعتراف بالواقع ، فحملت اليها الاهرام لاعلن ان كاتب النقد كان يتسمع لها من وراء ستار ، وكانت فكاهة مرحة قابلتها بطرب تألق بشره في عينها الوامضة فشف عن سحر بديع .

وجاء الاطفال واحدا فواحدا على تناسل الايام ، فشاهدتها في حملها السادس تنوء بعبء ثقيل ، اذ ان قلبها الضعيف لا ينهض بميلاد متكرر ، وقد حذرني الاطباء ان اواصل الكرة ، وعدوا نجاتها في المرة السادسة اعجوبة نادرة ، وشهد الله كم هز نفسي ان اسمع عن خفقان قلبها ما يسيء ! وكان من عادتها ان تبدأ الحمل بعد شهور الرضاع ، فاتفقت معها على ان نهيء الحوافظ المانعة قبل ميعاد الحمل ، وكأن الاقدار كانت تضحك منا فقد شاءت للمرة الاولى ان تحمل بعد الاربعين مباشرة ، وزادت الاقدار في سخريتها حين اخفت عنا حقيقة الحمل حتى مضت ثلاثة اشهر !

رباه أتتكرر التجربة الهائلة فأنتظر حتى ارى عزيزتي الحسناء في الشهرين الاخيرين تتعرض الى اعصار مخيف ؟ من الذي يضمن لي سلامة قلبها الواهن هذه المرة وقد جاءتنا النذر ، وصرح الطبيب ؟ ايجوز ان ارى زهرتها الناكرة تتعرض وشيكا للذبول ! لن انسى كيف كست شمس الغروب وجهها في ازمتها الماضية ، فاصطبغ بصفرة تقطع لها مني النياط ! لن انسى كيف فقدت

التنفس الطبيعي لحظات مرت على احساسي الهائج كأنها بضع سنوات ! اني لاطرق الاطباء من جديد ، فأسمع عن طبيب يقوم بما يزيل الحمل في خفة سريعة ؟ فأدلف معها اليه مبينا دوافع العمل في ارهاق فؤادها وضعف قوتها ! وقد كشف الطبيب عن قلبها وفحص حالتها فأثبت ان النتيجة سارة ، والعملية مضمونة لا تستغرق بضع لحظات ! واصدق القول فأنقل زوجتي على قدميها صحيحة سليمة ليقوم الرجل بعمله ، ولكنه يخطىء الموضع ، فيحدث اخطر الالام وانظر فأجد الزوجة الحبيبة محمولة الى طبيب آخر ، هاله سوء الامر فأنحى علي بالملام ، وقد وقعت الكارثة على رأسي فأظلم الافق في عيني وتركت المسكينة على سرير المرض بالمستشفى الخاص ومعها عقلي فهاأنذا اسير شارد اللب زائغ العينين اضرب كفا بكف وارفع اصبعي الى فمي فأعضها عضا ! واصرخ في اعماقي : رباه رباه ضللت الطريق .

قال هذا ثم ارسل زفرة طويلة نفس بها عن صدر يضطرم بالاشجان ، ولما كنت اعهده شاعري المبالغة عاطفي النظرة ، فقد رايت ان استوثق بنفسي عن حقيقة المرض المفاجىء فاستأذنت لحظات لازور المستشفى ، واشهد المريضة على الطبيعة ، وحادثت الطبيب فعرفت ان النتيجة مطمئنة ولكن العلاج سيطول ، فلا تسل عن فرحتي الغامرة ، اذ طفقت اعدو اليه عدوا فهتفت به ، لا عليك يا صاحِ فالمسألة لا تحتاج لغير اسبوع ، فرفع وجهه الي ولم يدعني انتقد افراطه في الجزع واستسلامه للشجى بل عجل يقول : اسبوع يا اخي وتعده قليلا ! ان الاسبوع سبعة ايام واليوم اربع وعشرون ساعة والساعة ستون دقيقة وفي كل دقيقة آهة او انة او دمعة ! ولم لا تستعظم جرمي الكبير وقد حبستها سجينة على سرير المرض ، يأتي الصباح فلا تنهض الى الشرفة متأملة اشراقه بل تتذكر اطفالها في المنزل صفارا لا يجدون النظرة الحانية واليد المسعفة بالمأكل والمشرب والملبس والزينة ، وانا من انا ؟

شبح انظر ولا اتكلم ! ثم التفت الى المنزل فأجده مقبرة خاوية بعثرت ادواته وفرق اثاثه واهملت الخادمة شأنه بعد ان غابت المديرة الحازمة ، فاذا كان الغذاء تبلغت الاسرة بالجاف المعبأ ، واخذت المريضة تتذكر ذلك فتزداد الما على الم ، وتظل طريحة فراشها ، لا تهب كعادتها عند الاصيل تلبس اجمل ثيابها ، لتستقبل زائرة ، او تترك البيت الى متجر او منتزه او منزل قريب ! فاذا كان الليل انكفأ الاطفال الى مضاجعهم ، ولا من حديث عائلي او سهرة تلفزيونية ! وانا من انا ؟ شبح يترك البيت الى المستشفى ويترك المستشفى الى المنزل وليس يصنع شيئا غير التفكير الحزين ! اتدري يا سيدي اني اشتاقها كما لو لم تكن زوجتي التي سعدت بها هذه الاعوام . بل كأمل بعيد اسعى الى الدنو منه ؟

اتدري ان اخطاءها انقلبت في عيني محامد ذات حسنات ؟ كنت آخذ عليها غيرتها المفرطة وجنوحها الى بعض الظنون فأحببت ان يسرع شفاؤها حتى تخف الى منزلها لتغار كما تشاء ولتسرف في بعض الظنون كما تريد ؟ انني لاتصورها في مجلسي هذا ضاحكة باسمة ، او عابسة لائمة ، فأجد الصورتين المتباينتين حبيبتين الى قلبي ، جميلتين في عيني بل لعمري انني لاشتهي الان عبوسها اللائم واعده غنما ظافرا اشكر عليه الايام ان سامحت به دون ابطاء ؟ فمتى يمر الاسبوع الطويل بأيامه وساعاته ودقائقه بل كيف ينقضي بآهاته واناته ومدامعه؟ يمينا انها لا تتأوه ولا تئن ولا تدمع في وضوح كما اتأوه وائن وادمع في صمت واحتباس واين من يبكي فيعذر ممن يبكي فيلام ؟

اني لاخشى ان اسرع الى زيارتها الان فأسمعها تصيح ، وكم ذهبت الى المستشفى اقتلع رجلي من الارض اقتلاعا حتى اذا وقفت امام الباب ادركتني رهبة حزينة من التقدم كيلا افاجأ بما لا اسر به ، أأعذب نفسي برؤية وجهها المتألم تنطق كل خلجة من خلجاته بما تكابد من العذاب ، أأبخع نفسي بمشهدها القلق على الوساد تقلبها الالام المبرحة جنبا الى جنب ، ولا من مفيث ، لشد ما تنهار معاقل الرجولة في الانسان حين يرى نفسه عاجزا عن ان يسدي النفع العاجل لمن ينشد له الارتياح ؟ وحين يرى نفسه خاضعا لتحديد اوقات المرض والشفاء ! انها زوجتي انها زوجتي وقد صنعت لها المأساة !!

قلت في حيرة ستظل يا اخي تلوك هذا الحديث النادم اسبوعا غير قصير ، وسأحرص على لقائك بعد انقضائه لاستمع الى حديث جديد ، ثم نظرت اليه متسمعا فوجدته ينشد في الم قول القائل :

كأن القلب ليلة قيل يغدى ... بليلى العامرية او يراح
قطاة عزها شرك فباتت ... تجاذبه وقد علق الجناح

الفيوم — ج. ع. م **محمد رجب البيومي**

الوعد الذي مات

وعدتك بالشموع وبالتحايا
هدايا ، ما أحيلاها هدايا
ولكن مستواك — أظن — أعلى
فلن تجدي هدايا مستوايا
ويكفي انني اوقدت حبا
بقلبك ليس يدري ما الخطايا

فوزي عطوي



ظافر القاسمي

من التاريخ المنسي

بقلم ظافر القاسمي
استاذ اللغة العربية في الجامعة اللبنانية

* * *

ما زال حي « باب » الجابية من دمشق القديمة الحي الاثير عندي ، الذي يضن قلبي الواهن بالذكريات الحلوة العديدة المزدحمة فيه . وما زالت هذه الذكريات غضة طرية في نفسي ، لم يضع من معالمها شيء ، ولا فقدت شيئا من ظلالها والوانها ، ولا غاب عني شيء من صورها ، ولا حنت نفسي الا الى موسيقاه التي ما زالت اصداؤها تصدح بين جوانحي حتى اليوم . فلقد قضيت في هذا الحي شطر عمري ، سبعا وعشرين سنة متعاقبات ، يكر فيها الصباح والمساء على مشاهد من الاخلاق والمروءة والدين والخوف من الله .

وكان في هذا الحي امرأة مسنة معتوهة تدعى « ام جميل الراهطة » وكانت المرأة الوحيدة السافرة في الحي، وكانت لها عصا تتقدمها ، وكأن الشاعر قد عناها حين قال :

تقوس بعد طول العمر ظهري ... وداستني الليالي اي دوس
فامشي والعصا تمشي امامي ... كأن قوامها وتر لقوسي

كانت ام جميل رحمها الله تخرج مع الفجر الى جامع السنانية فتصلي في سدة النساء صلاة الصبح مع الجماعة ، وما كان في خروجها وحدها في الليل قبل خمسين سنة ما يدعوها للخوف ، كما أن احدا لم يكن ليخاف منها . حتى اذا قضت ام جميل صلاتها وردها عادت الى بيتها القريب ، وعصاها دوما امامها ، وهي تقرأ او تعوذ او تسمي ، وتعود الى النوم ، فاذا ما ارتفعت الشمس ، ووقع الضحى ، خرجت ام جميل من دارها ثانية ، والطريق مزدحمة بالمارة والباعة ، فتدعو لهذا ، وتمسح على رأس ذلك ، ولا تؤذي احدا ، فاذا بدا لبعض الصبية ان يعبثوا بها او ان يؤذوها شتمتهم ، ولحقتهم على حال من العجز بعصاها ، فلا تسمع حينئذ اصوات اصحاب الدكاكين وهم ينهون الصبية عن المرأة الصالحة ، ويطلبون اليهم الكف عن اذاها .

وتمضي ام جميل في طريقها الى الدرويشية ، فسوق الحميدية ، حتى اذا وصلت الى فرن يقع في اواسطه وقفت لترى زوجها ، فقد كان عاملا فيه ، فيبدأ الحديث بالعتاب ، وينتهي بالشتائم ، ثم تواصل المرأة الصالحة طريقها الى الجامع الاموي فتصلي فيه الظهر والعصر ، ثم تعود الى بيتها قبيل الغروب .

وخرجت ام جميل على عادتها في يوم من اواخر تموز ١٩٢٠ من بيتها في الضحى ، فوجدت شيئا غير عادي ولا مألوف ، فقد تجمع الناس ، واخذوا يتحدثون عن شيء اسمه « الفرنساوي » قد احتلت جيوشه المدينة ، كما يتحدثون عن فيصل الحسين الاول انه قد غادرها ، فلا تكاد تفهم شيئا مما يقال ، ولا مما يجري ومن اين لها ان تفهم هذا كله ، وهي المرأة التي سلبت نعمة العقل ، فلا تبالي بحديث القوم ، ولا تأبه لهذا التجمع ، وانما تشق طريقها بين الناس ، فيفسح لها بعضهم ، ويضيق بها بعضهم الاخر ، فما كان لهذه المرأة في هذا اليوم مكان بين الرجال ، وخير لها ان تقبع في زاوية بيتها.

الا ان ام جميل لا ترى ان هناك ما يدعوها لتغيير برنامجها اليومي ، فتسير على بركة الله الى الجامع الاموي ، وهي تعجب او لا تعجب من تغير شكل الطريق الذي الفته في كل يوم .

وبعد يومين اثنين تفرض فرنسا على مدينة دمشق غرامة حربية قدرها مئتا الف ليرة ذهبية فقط ، وعشرة الاف بندقية ، وتأييدا لجباية هذه الغرامة تبعث بالجنود السنغال الى الاحياء ، فتزرع بعضهم على الابواب ، فرضا لهيبتها من جهة ، وضمانا لجباية الغرامة من جهة ثانية . وهؤلاء الجنود يمنعون اصحاب البيوت من الخروج منها ومن دخول احد اليها ، ما لم تتم جباية الغرامة كلها .

وتخرج ام جميل وترى الجنود السنغال مزروعة امام بعض البيوت ، فتقف اولا لتتأمل منظرهم الغريب ، وهم شاكو السلاح ، بألوانهم السوداء ، ثم تنصرف وهي تحسبهم دمى جاء بها الناس للهو والتسلية . فاذا ما وصلت الى الجامع الاموي رأت الناس قد سارعوا اليه قبل وقت الصلاة ، واخذوا يتحدثون ، فتسمع ام جميل كلمة من هنا ، وكلمة من هناك ، وصياحا من جانب ، وزمجرة

من جانب ، فتفهم عندئذ ان دولة بني عثمان ، قد دالت ، وان دولة الشريف فيصل قد زالت ، وان اجنبيا لا من العرب ولا من المسلمين اسمه « الفرنساوي » قد جاء ليحكم البلد ، وان هؤلاء الجنود السود هم اعوانه على الحكم ، فتقبعت ام جميل في سدة الجامع تتمتم بكلام غير مفهوم ، ليس وردا ، ولا قرآنا ، ولا شيئا مما يسبق الصلاة ، والناس في شغل شاغل عن ام جميل ، لا يعيرونها انتباها ولا التفاتا .

وتؤدي ام جميل على عادتها صلاة الظهر وصلاة العصر ، ثم تخرج من الجامع ، وقد اصبح في اهابها انسان آخر . لم يستقم ظهرها الذي تقوس ، ولم تستطع الاستغناء عن عصاها ، ولكنها كانت قوية الجنان واللسان ، فاذا هي تدعو على « الفرنساوي » من باب الجامع الاموي في المسكية حتى تصل الى باب بيتها ، مجتازة سوق الحميدية فالدرويشية فباب الجبابية فالقماحين .

وتخرج ام جميل من بيتها في اليوم التالي ، فاذا هي ايضا تدعو على « الفرنساوي » من القماحين الى الجامع الاموي واستمرت على ذلك اياما قليلة لا اعرف عددها بالضبط والتحديد . ومن عجب ان الناس كانوا يؤمنون على دعائها وان الذي كان لا يبالي بها اصبح يترقب مرورها ، وان الصبية الذين كانوا يعبثون بها اصبحوا يتبعونها ليقولوا « آمين » كلما دعت على « الفرنساوي » فلا يؤذيها احد منهم ، ولا يضطرونها للدعاء عليهم او لان تلحقهم بعصاها ، والعجز قد هدها .

كانت هذه الايام قليلة ، رأى الناس بعدها ام جميل تخرج في الضحى لتقول بصوتها الجهوري :

(يا ربي ! مثل ما قلت لك بالجامع الاموي) .

ويعجب الناس لهذا التغير المفاجىء في سلوك ام جميل . فما الذي دهاها حتى اقلعت عن الدعاء على « الفرنساوي » ؟ وماذا قلت لربها في الجامع الاموي ؟ وما لها قد ازدادت عجزا على عجزها ؟ واخذ الناس يسأل بعضهم بعضا عن السر . ولم يطل احتجاب السر عن الناس ، حتى قال لهم قائل :

ـ مسكينة ام جميل ! لقد وصلت امس الى اول سوق الحميدية فاقتادها الزبانية الى دوائر الشرطة وهناك اذاقوها انواع العذاب والنكال ، ونالوا من جسدها الواهي ونهوها عن الدعاء على « الفرنساوي » ، ولولا أن فرنسيا عاقلا ادركها ، لقضت نحبها ، وكان هذا الفرنسي من النبلاء الاحرار ، فلما رأى المرأة العاجزة تضرب وتعذب ، غضب وامر باكرامها والافراج عنها . فلما استردت حريتها انطلقت فورا الى الجامع الاموي ، ووقفت في صحنه وفي حرمه ، وحول قبور الانبياء فيه ، وامام محرابه ، واخذت تدعو على « الفرنساوي » وهي تبكي ، وتضرع الى الله بلفتها ان ينتقم لها ، وفي ان يبعد هذا الاجنبي الغاصب المحتل عن البلاد .

ثم عادت ام جميل الى بيتها ، وهي تخاف اذى الزبانية ولكنها جعلت بينها وبين ربها سرا في جامع بني امية ، اخذت تردده على نحو رتيب لا يتغير :

(يا ربي ! مثل ما قلت لك بالجامع الاموي) .

لقد عاشت ام جميل دهرا بعد هذا السر الذي انكشف ، وهي تمضي من بيتها في باب الجابية الى الجامع الاموي ، وهي تردد لنداء الحزين ، والناس جميعا يعرفون معنى هذا النداء ، فيقولون « آمين » .

مسكينة ام جميل الراهطة ، لقد ماتت قبل الجلاء .

ظافر القاسمي

ظمأ

انـا مـا لغيـرك أظمـأ
يـا مـن حنانـك مرفـأ
آوي اليـه اذا استبـد
د بـي الهجيـر ، فاهـدأ
أبكـي وبستانـي ، ودو
حتـي التـي أتفيـأ
كنـي الـذي وقت الشتا
ء بنـوره أستدفـىء

قالـوا : وداؤك حبهـا
يـا ليتنـي ، لا أبـرأ
جرحي ، وبرئـي أنـت فـي
ـك المنتهـى والمبـدأ
منـك العـذاب يشوقنـي
فيـك الاسـى يتبـرأ
فالهـم ينبئنـا بـأنـا
ذات يـوم نهنـأ

يـا أجمـل الفتيـات مـا
لـي ، غيـر صدرك مهـدأ
أنـا ان صـددت الباب فـي
وجهـي الـى مـن ألجـأ

امارة الفجيرة — **عبد المنعم عواد يوسف**



عيسى الناعوري

دور الاديب العربي في المعركة

بقلم عيسى الناعوري

* * *

معركة الامة العربية ضد الاستعمار وضد الصهيونية كانت وما تزال متعددة الجوانب ، طويلة المدى ، بعيدة الاهداف، انها معركة كل فرد في الامة ، ومعركة الامة كلها في سبيل الحرية والاستقلال ، والسيادة والكرامة . وليس ميدانها الارض العربية وحدها : كل ارض في الدنيا هي ارض لمعركتنا ، وكل انسان في العالم هو شريك في معركتنا : معنا او علينا ، ومن اهداف معركتنا ان نكسبه معنا ، لا ان نتركه لاعدائنا .

ونحن حين نترك معركتنا للزعيم السياسي وللجندي المحارب وحدهما ،ونقف من بعيد نتفرج عليهما ، ثم نمضي في انتقادهما فحسب — كما فعلنا حتى اليوم — انما نكتب بذلك هزيمتنا المؤكدة ، وكلنا عندئذ ملومون بمقياس واحد — كالزعيم السياسي ، وكالجندي الذي يفر من المعركة — المتفرج على المعركة من بعيد لكي ينتقد ويعدد الاخطاء هو جندي جبان هارب من شرف المعركة .

واذا كان في الامة من يتحملون قسطا اكبر من سواهم من الواجب والمسؤولية ، تماما كالجندي المحارب وكالزعيم القائد ، فهؤلاء هم الادباء والمفكرون . انهم في المرتبة الاولى من المسؤولية ، لان المفروض انهم اكثر فئات الامة تحسسا بالواجب ، وادراكا للمسؤولية ، ووعيا لكرامة الامة ولحق الوطن .

فهل كان الاديب العربي ، حتى اليوم ، بهذه المكانة القيادية ؟ هل ادى دوره في المعركة بوعي وادراك ومسؤولية ؟

لو عدنا الى الاعوام الخمسة والعشرين الماضية فقط من تاريخنا المعاصر ، السياسي والادبي معا ، لرأينا ان كل اقطارنا العربية عاشت هذه الفترة في غليان مستمر ، وفي نضال متصل الحلقات . في هذه الفترة تحررت اقطارنا العربية من الاستعمار المباشر ، ومن الجيوش المحتلة التي كانت تقيم كابوسا خانقا على الارض العربية : تحررت مصر ، وسوريا ، والاردن ، ولبنان ، وليبيا ، والسودان ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب ، والكويت ، وعدن .

في كل حركات التحرر هذه كتبت اطنان هائلة من قصائد الشعراء ، ومن مقالات الادباء ، ومن قصص القصاصين والروائيين .

وفي هذه الفترة عينها سقطت فلسطين فريسة بين اشداق الصهيونية بفضل جريمة الاستعمار البريطاني ، اولا — ثم بفضل التأييد والدعم من اميركا ومن غرب اوروبا وشرقها على السواء . وفي هذه المأساة — التي لا مثيل لها في الدنيا — كتبت ايضا اطنان من القصائد والمقالات والقصص والروايات . وازدادت الكتابات — المرة والعنترية على السواء بعد عار حزيران وحتى اليوم .

غير ان كل ما حملته الصحف والمجلات والكتب من شعر ونثر خلال هذه الفترة الطويلة ، وفي هذا النضال الدموي المستمر ، كان خلف المعركة ومن وراء غبارها : لم يكن قط في مستوى الانتصارات ، ولا كان في مستوى الهزائم . ولهذا مات الكثير الكثير منه ، والكثير ايضا ولد ميتا قبل ان تخطه اقلام اصحابه . القليل جدا هو الذي استحق الحياة ، وما يزال يذكره الناس لاصالته الابداعية ،و لانه لم يكن صراخا وزعيقا .

الادب الذي يثمر ويحفر اثره حفرا عميقا في النفوس ، ويعيش في الاذهان رغم تمادي الزمن ، هو الادب الهادىء ، الواعي ، المؤمن ، الادب الذي يعرف ان الهمس اعمق اثرا من الصراخ ، ويؤمن بأن الكلمة الواعية المؤمنة ليست في حاجة الى الزعيق لكي تدخل الى النفوس ، ولكي تستقر في القلوب .

الادب لا يمكن ان يكون عنترية وصراخا . والكلمة المناضلة هي رصاصة لا يسمع صوتها عند خروجها من فوهة البندقية ، بل بعد بلوغها الهدف ، اما الرصاصة التي تزمجر قبل ان تصل الى فم البندقية فهي الرصاصة التي تقتل صاحبها بعد ان تدمر بندقيته ، لانها تكون قد

(•) القيت في مؤتمر الادباء العرب التاسع في بغداد .

انفجرت في داخلها .

ان كل ما يبنى على التهريج والهياج العاطفي فاشل، هو ادب تخريبي حين يشارك في المعركة . وما اكثر هذا دون ريب . والادب التهريجي القائم على الهياج العاطفي اللون من الادب الذي رافق معارك الامة العربية كلها حتى اليوم ! كان الكثير منه تهريجا وعنتريات وهياجا عاطفيا يتمجد به على حساب المعركة اناس ليسوا منها ، في كثير من الاحيان .

لكي تنجح المعركة ، لا بد لها من تخطيط واع ، ومن تحديد للادوار والمسؤوليات ، لا بد لها من عمل صامت حثيث : ان للجندي مكانه من المعركة ، وللسياسي مكانه ، وللاديب مكانه منها كذلك . انه لا يأخذ مكان الجندي ، ولا هو مكلف بمهمة السياسي ، ولكنه جندي وقائد في ميدان القلم والكلمة الواعية الفاعلة . الاديب هو ابن الشعب ، وهو الصق الناس بالشعب ، وبحياة الشعب ، وبتفكير الشعب ، ومكانه هناك بين صفوف الشعب .

ولكن هناك ناحية اخرى هي ايضا من مجال عمل الاديب ومن ميدان رسالته : كل ادبائنا ، وشعرائنا ، وقصاصينا ، وروائيينا ، كتبوا - وكتبوا دون حدود - في قضايا امتنا النضالية. كلهم كتبوا في قضية فلسطين. ولكنهم كلهم كتبوا - وما يزالون يكتبون - للقارىء العربي وحده ، وكأن القارىء العربي هو كل شيء في الاعداد للمعركة . ان القارىء العربي يعرف واقعه ويعيشه مثلما يعرفه الادباء العرب ويعيشونه ، ولكن الادباء - ومثلهم وسائل الاعلام العربي - يركزون كل اهتمامهم على الجماهير العربية وحدها ، داخل الوطن العربي - ولا يحاولون ان يتجاوزوا هذا الحد . استهلاك الاعلام العربي، واستهلاك الادباء العرب ، كله في الداخل : انطواء على النفس ، وعزلة عن العالم الواسع .

الاديب العربي - ومثله الاعلام العربي - يجب ان يلتفت الى الخارج ، وان ينقل القضايا القومية الى اسماع الاخرين ، لكي يعرف الاخرون لماذا نناضل، وبأي حق نطالب ، والى اي هدف نرمي .

صحيح ان مكان المعركة الاصيل هو ارضنا العربية وحدها ، وان وقودها جماهيرنا العربية وحدها ، وصحيح ان من واجب الادب ان يقود امته الى خوض المعركة بوعي وحماسة وتصميم ، وصحيح ان نصرا واحدا في معركة اهم من سائر وسائل الاعلام . ولكن من الصحيح كذلك ان كل معركة تحتاج الى انصار يدعمونها، ويدافعون عنها ، ويؤمنون بأنها حق ، وانها تهدف الى احقاق الحق والعدالة .

لقد كان من اهم عوامل خسارتنا حرب حزيران وما قبلها ان اليهود استطاعوا ان يعبئوا العالم كله ضدنا ، وحين بادرونا بالعدوان الصاعق هلل العالم كله لنصرهم السريع ، وشمت بنا العالم كله ، واصبحنا موضع ازدراء واحتقار في كل مكان ، حتى الشفقة بخلوا بها علينا . السبب في ذلك ان العالم لا يعرفنا ، واننا - على كل صعيد - كنا عنه في عزلة ، فما يسمع عنا غير التهديدات والشتائم الصاخبة تنطلق من حناجر ادبائنا ، وشعرائنا ، وصحفنا . وكان من جراء ذلك ان كرهنا العالم ، وكذلك كان من جراء استغلال اليهود لكل ذلك على اوسع نطاق في العالم بأسره ان شمت العالم كله بهزيمتنا ، واحتقرنا كل الاحتقار .

انني مؤمن ايمانا لا حد له بأنه لا سبيل لنا الى استرداد احترام العالم وثقته بغير النصر ، لا شيء سوى النصر يجعلنا نعود الى مرتبة البشر في اعين العالم . ولكنني مؤمن كذلك ايمانا لا حد له بأن من الاسلحة المهمة التي علينا ان نتسلح بها للنصر ان نسعى لكسب الانصار والمؤيدين لقضايانا ، الى جانب سعينا الى توعية الامة بأسرها لكي تصب كل جهودها الداخلية ، في الوطن العربي بأسره ، لاجل كسب النصر بكل ثمن . في هذين الميدانين معا تقع مسؤولية الاديب : في الميدان الداخلي للتوعية والحشد ، وفي الميدان الخارجي لكسب الرأي العالمي ، وتوطيد الصلة بمختلف الشعوب لتعرف قضيتنا وحقنا وسبب نضالنا .

صداقة الشعوب ضرورية لنصرة كل قضية من قضايانا ، ويجب ان نوليها كل عنايتنا بكل وسيلة : بوسائل الاعلام المختلفة ، وبأقلام ادبائنا ، وبالاتصالات الفردية والجماهية .

منذ بضع سنوات زارت الاردن شاعرة ايطالية ، وشاءت ان تتعرف ببعض ادباء الاردن وتطلع على اتجاهاتهم الادبية . وفي منزلي جمعت لها عددا منهم . وعرفت منهم ان كل اديب اردني وعربي قد كتب في القضية الفلسطينية . فتعجبت الشاعرة وسألت : « وهل كان كل ما كتبتم باللغة العربية وحدها ؟ » فقال الجميع : « نعم ، انها لغتنا ، وبها نكتب لقرائنا » .

ولم تستطع الشاعرة ان تكتم ثورتها ، فقالت : «وانا، من منكم كتب لي شيئا اعرف منه قضيته ؟ والناس الاخرون ، الا تفكرون بأن معرفتهم لقضيتكم تفيدكم في كسب العدالة فيها ، انكم تكتبون لشعبكم فقط ، وشعبكم يعيش المأساة التي تعيشون ، ويعرفها كما تعرفونها انتم ، فهو ليس في حاجة الى ان تظلوا ترددونها على اسماعه بالشعر تارة ، وبالنثر تارة اخرى . الا ترون انكم تضيعون جهودكم عبثا بينما تظل قضاياكم بعيدة عن اسماع العالم وعن وعي شعوبه ؟ » .

لقد كانت الشاعرة على حق : نحن نكتب ونكتب ونكتب ، ولكن لانفسنا ولكي نطرب على اصواتنا . لسنا نكتب لندافع عن حقنا في محكمة الضمير الانساني .

من حكايات حبنا

أو انسى لقاءنا في العشيه
وحكايات حبنا العاطفيه
حين كانت تروي عيوني الاحا
ديث لعين المليحة القزحيه
تمتمات كانها اغنيات
وعتاب .. وضحكة لؤلؤيه
كلما بحت بالهوى تتثنى
ثم تغضي الانظار وهي حييه
وعليها من الحياء رداء
لم يدنس.. وامتعتي الروحيه
هكذا صبوة المحب المعنى
بفتاة أطوارها علويه
نظرات تميت قلبي وتحيي
عذرها كان انها عذريه

زحلة – لبنان   رياض معلوف

عالمنا العربي يظل في عزلة عن الدنيا باسرها ، اللهم الا ما ننفقه بسخاء في مواخيره على ملذاتنا ، لنكسب به مزيدا من احتقاره لامتنا . اما قضايانا ، ومآسينا ، وصراعنا الدامي الطويل في سبيل العدالة ، فلا يحس بها احد ، لاننا لم نعرف بعد السبيل الى تعريف العالم بها .

ان هذا ليس واجب الاعلام العربي وحده ، ليس واجب الدول والسياسيين فحسب : انه واجب كل اديب يجيد لغة اجنبية . علينا ان نكتب للشعوب الاخرى بلغاتها ، وان نصل الى قلوبها عن طريق السنتها ، لان لساننا وحده لا يصل الى غير اسماعنا وحدنا . يجب ان ندخل المعركة بكل اسلحتها : ولغات الشعوب الاخرى من الاسلحة المهمة لنصرة كل معركة في سبيل الحق والعدالة.

ليس من الضروري ان يكون كل ما نكتبه بلغات الاخرين سياسة وعرضا للقضايا القومية : كل قصيدة جميلة يقراها شعباخر بلغته هي خيط يربطه بنا ، وكل اقصوصة جميلة نكتبها له بلسانه تكسبنا صداقته ، وكل رواية ناجحة نقدمها له بلغته هي صلة بيننا وبين فكره واحساسه . المهم هو ان نعقد الصلة بيننا وبين الاخرين عن طريق السنتهم ، وعن طريق الفكر المشترك بيننا وبينهم . ان هذا يربط بين فكرنا وفكرهم ، ويشركهم في احساسنا واتجاهاتنا الانسانية .

حين يجيء الغربيون الى بلادنا للسياحة ، مثلا ، يجيئون وهم يجهلوننا ، ثم يعودون وقد صارت لديهم فكرة وشعور انتقلا اليهم ولو عن طريق الدليل وحده . انها صلة اللسان والفكر التي تربط بين البشر علىاختلاف اوطانهم وحضاراتهم . فكيف اذا وصلنا نحن اليهم ، وقدمنا اليهم انفسنا وفكرنا وادبنا وهم في بيوتهم ، عن طريق صحفهم ، ودور النشر عندهم ، وبواسطة السنتهم؟

الجزائريون ، الى جانب حربهم الباسلة العنيدة ، غزوا المجتمع الفرنسي ، الذي كانوا يحاربونه ، بأدبهم المكتوب بالفرنسية ، فكان لهم من الفرنسيين انصار ضد فرنسا نفسها ، دعموهم وايدوهم في نضالهم حتى النصر.

هذه حقيقة ارجو ان تنال الاهتمام الكافي من هذا المؤتمر ، وان تكون بين البارز المهم من مقرراته ، ان يتجه الادباء الذين يجيدون لغات اجنبية الى الكتابة بتلك اللغات ، وفي مواطن تلك اللغات .

غير ان هناك جانبا آخر لا بد من النص عليه كذلك : فحين يوصي المؤتمر بتوجيه الاديب العربي نحو هذا الميدان الواسع المهم ، لا بد من توصية اخرى للحكومات العربية ، وللجامعة العربية كذلك : ان الاديب الذي يريد ان يكتب بلغة اجنبية قد لا يجد المجال مفتوحا امامه في صحف الغرب وفي دور نشره . وهنا لا بد من جهود تقوم بها الحكومات العربية ، والجامعة العربية ، لكي تتعاون مع الاديب في هذا الميدان ، بأن تعمل على نشر انتاجه وتوزيعه متى كان جديرا بالنشر .

ان وجود صحف ودور نشر عربية باللغات الاجنبية امر على جانب كبير من الاهمية لخدمة قضايانا القومية . وليس تحقيق هذا بالامر العسير اذا صدقت النية وصحت العزيمة . ان اتصال الفكر العربي بالعالم الواسع ، واتصال العالم به ، جزء مهم من الاسلحة التي لا بد منها للمعركة ، ولكسب النصر فيها .

على انه لا بد من الاشارة الى ان ادب الصراخ والعنترية ، اذا كان يجد له سوقا واسعة في بلادنا العربية ، فليس له اي سوق لدى الاخرين : الكلمة الهامسة الناعمة ، والفكرة الصادقة الصافية ، والنقاش الهادىء المقنع ، والعبارة المهذبة الجميلة ، هي وحدها التي تجد اوسع الاسواق ، بينما لا يعود علينا ادب الصراخ والتهويش بغير المزيد من الخيبة وقلة الاحترام .

ايها السادة ، خلاصة هذه الكلمة هي ان للاديب العربي ميدانين يناضل فيهما في معركتنا ضد الاستعمار والصهيونية :

الاول : الميدان الداخلي – للتوعية والحشد .

الثاني : الميدان العالمي – لكسب الراي العام العالمي ، او قسم كبير منه ، الى جانب حقنا ، عن طريق كسب ثقته بنا ، وبمساهمتنا في حضارة الانسان المعاصرة .

وفي هذين الميدانين يجد الاديب العربي المجال واسعا جدا ليؤدي دوره العظيم في المعركة ، لاجل النصر .

عمان – الاردن   عيسى الناعوري

ساكن الريح والغبار

الدكتور علي شلق

أكتب للرياح في عوائها القديم
أسطورة المغارة العتيقة
محبرتي الغبار ، والشرار
يحملها الرماد للشواطىء القصية
تضيع لا ضوء ، ولا أمنية
يا بحرها ، حشرجة وزور
ينهشه حذائي الفرير

أكتب للشتاء واللهب
في كهفي المخنوق بالضباب
أكتب للرمال في حماقة الهجير
وكل ما حولي صور
تبصق في السأم
لزاجة العدم

أكتب للجمر الذي يسافر
وقيده الظلام والشتاء
شراعه جدائل الخناجر
شباكه موحولة العيون والشواطىء
فتعقد الدموع والدماء
لكفه لآلىء

أجوس في غيابتي البعيده
مواكبي ليل بلا رفيق
عكازي احتمال
جرابي السؤال
أبحث عن مدينة جديده
ليست لها شمس ولا طريق

وعندما هـز الغرام قدمي
سحقت كالنمل على الدروب
حماقة الطغاة والشعوب

أمد آهاتي لهب
أجتر احقادي غضب
أمرغ الزمان في المكان
ادوسه بارجل السام
ادفعه في هوة العـدم
لان لي وجودا
لان لـي قلم



من مذكرات عربي في لندن

بقلم الدكتور فؤاد جبور حداد

من « العروة الوثقى » في لندن



دخل « عوني » مكتب صديقه بلندن واقفل وراءه الباب قائلا اريد ان اقول لك اني طلقت زوجتي أم كريم وتزوجت امرأة انجليزية هي الآن في الغرفة المجاورة سأدعوها لاعرفك عليها. وجاءت الزوجة الجديدة فتاة انجليزية جميلة لا يزيد عمرها كثيرا على عمر ابنة « عوني » الكبرى فحياها الصديق بأدب وتبادل معها عبارا تالمجاملة المعتادة في مثل هذه المناسبات .

وعرف الصديق ان عوني وهو موظف كبير في احدى السفارات العربية بلندن قد تعرف على الزوجة الجديدة عندما كان مريضا في احد المستشفيات وكانت هي تقوم بمهمة تمريضه . ولم يتعرف الزوج على أي شخص من أهلها لانهم حسب قولها قد هاجروا منذ زمن طويل الى كندا .

وكان الصديق يعرف ايضا الزوجة العربية الاولى وذلك بحكم صداقته للعائلة ولم تكن على جانب كبير من الجمال كالزوجة الثانية ولكنها انجبت له اربعة اولاد اصحاء اذكياء وقضت شطرا كبيرا من عمرها في خدمته وخدمة اولاده . ومع ذلك فقد شغل باله اكثر من حزنه على مصير أم كريم ما يقرؤه دائما ويسمعه في الاذاعات من خطط التجسس الماهرة واتباعادهى الطرق لاستخلاص المعلومات فأخذ يقول لنفسه : لو اراد اعداؤنا ان يزرعوا جاسوسة في سفارتنا بلندن فهذه هي الطريقة المثلى لذلك اي ان يزوجوا موظفا كبيرا احدىعميلاتهم .

ثم رد على نفسه فقال : ولكن ما هي الاسرار المهمة التي لدينا هنا وتستحق اعمالا جاسوسية ماهرة انهم يستطيعون الحصول على اية معلومات من المصادر المحلية بلندن عن شراء المعدات أو عن الدورات العسكرية وما الى ذلك .

ولكنه تذكر قصة ذلك الجاسوس الذي انتحل اسما عاديا وصادق عربيا في المهجر ثم عاد المهاجر الى منصب كبير في سوريا فعين ذلك الصديق في منصب هام فكان بلاء عظيما لولا ان عناية الله قيضت من تعرف عليه في دائرة الاستخبارات فكان مصيره الشنق علنا في دمشق .

ثم قال لنفسه اليس من المحتمل ان ينتقل « عوني » الى الوطن ويشغل فيه وظيفة مهمة ويأخذ معه زوجته الجديدة فاذا كانتجاسوسة اعادت تلك القصة التي جرت مع المهاجر السوري من قبل ومن يدري ماذا تكون العواقب والمآسي .

ومضى اسبوع والصديق يقلب النظر في امر صديقه « عوني » ، الى أن قر رأيه على التحدث معه في هذا الخصوص . فذهب لزيارته واخذ بكل حذر يدخل في صلب الموضوع . فقال : « لنا سفارة في كندا فلماذا لا يذهب احد من هناك للتعرف على أهل زوجتك » . واستغرب عوني هذه الملاحظة ثم اكمل الصديق كلامه فقال : « قد لا يكون في ما سأقوله لك اي اثر من الصحة ولكن يؤرقني أمر واحد وهو ان الامكانية موجودة وواجبي كعربي وكصديق يحتم علي أن الفت نظرك اليها . وبعد ذلك فأنت حر في التصرف كما ترى مناسبا » .

وهنا سرد له مخاوفه مكررا بين الحين والآخر ان هذه نظرية فقط يمكن ان تكون صحيحة وخاطئة وليس هناك اي اثبات لها انما الامر الخطير هو أنه لا يوجد ما يثبت بطلانها حتى الآن . وتقبل عوني كلام صديقه بصدر رحب ووعده بأن يزوره في الاسبوع التالي بعد ان يعير الموضوع اهتمامه الخاص .

وفعلا بعد اسبوع دخل « عوني » مكتب صديقه وعلائم الهم ظاهرة عليه وقال : « يظهر ان في نظريتك شيئا من الصحة ذلك لاني ارسلت برقية الى سفارتنا في كندا وطلبت منهم الاتصال بعنوان أهلها. وجاءني اليوم رد يقول أنه لا يوجد في ذلك العنوان احد له اية علاقة بها . اذن هي تكذب وان كانت تكذب فلماذا » .

وقال الصديق : « وهل جابهتها بهذا الاكتشاف » فأجاب عوني « لا، لاني اريد ان تكون لي خطة مضادة فاذا ثبت لنا انها حقا جاسوسة وهي لا تعرف اننا نعرف فعندئذ قد نستعملها لفائدتنا أي لارسال معلومات خاطئة ولكن يجب أن أتأكد اولا ... هذا أهم شيء وسأتصل بك حالما تحدث تطورات جديدة » .

ورد عليه الصديق قائلا : هذه يا اخي لعبة خطيرة جدا وارجو أن تسمح لي بان أشير عليك ما اشاره علي بن ابي طالب على رسول الله بعد حادثة الافك اذ قال « طلقها يا رسول الله ان في النساء عوض » فقال عوني « لا أستطيع ذلك لانها ان كانت بريئة كنت ظالما لها وان كانت غير بريئة كنت هاربا من مضاعفات الموقف » .

ومرت بضعة ايام جاء بعدها عوني الى صديقه واسارير وجهه مكفهرة عابسة وقال « اكاد أجزم بانها غير

بريئة فقد ذكرت انهـا تريـد ان تشتري ثيابا فتبعتها دون ان تراني فسارت الى الحي الفقير مـن لندن ودخلت قهوة صغيرة منعزلة وبقيت اراقب حركاتها من بعيد فرأيت رجلا يجلس معها ثم رأيتها تعطيه اوراقـا وبعد ذلك عادت الى البيت وقالت انها لم تشتر الملابس لانها لم تجد شيئا صالحا ، وهـي تكذب حتما ، فمن هو الذي قابلته ومـا الـذي سلمته اياه » .

فرد عليه صديقه : « يا اخي بالله عليك لا تذهب الى ابعد مـن هـذا الحد جابهها بما رأيت واذا لم تعجبك اجابتها فسرحها باحسان لانـي اخشى تطورات الموقف الحالي ان سمحنا لهـا ان تسير سيرهـا الحالي » .

ولكن عوني واصل كلامه دون ان يعير تلـك النصيحة اي اهتمام أو كأنه لم يستمع اليها فقال : « انهـا تنوي مرة اخرى شراء ملابس فـي الاسبوع القادم ولهذا سأتبعها وآخذ صورا هذه المرة لها ولمن تقابله عسانا نتعرف عـلى هويتـه » . وحاول الصديق عبثا أن يثنيه عن عزمه فرد عليه : « انت الـذي فتحت عينـي وتريدني الآن أن لا أرى » ، وخـرج وهو فـي دوامـة مـن الهواجس والافكار .

ومرت بعد ذلك عدة اسابيع لـم يأت اثناءها عونـي لزيارة صديقه ولكنه اتصل به عدة مرات ليعلمه بأنه منهمك في جمع المعلومات المهمة وانه اخذ عـدة صور لشخصيات عديدة كانت تقابلهم زوجته في أماكن مختلفة وانه سيذهب فـي تلـك الامسية الى عملية تصوير مهمة جدا وسيأخذ جميـع الصـور الـى سكوتلاند يارد لمعرفة هوية اولئـك الناس الذين تتصل بهـم زوجته سرا .

وعلم الصديق بعد ذلك أن عونـي اصيب بحادث سيارة بينما كـان يقوم بالتصوير فـي احد الشوارع المزدحمة بحركـة السيـر وكانـت الحادثة قاضية على حياته . وأحس الصديق وكان يدا تعصر قلبه عصرا فهو الى حد كبير مسؤول عمـا جرى وان كان فـي الوقت نفسه لا يجد في اي تصرف مـن تصرفاته خطأ ظاهرا يؤنب نفسه عليه . وبعد مدة راض الصديق نفسه على قبول الحادث بأنه قضاء وقدر فلا حول ولا قوة الا بالله وعلى كـل حال فقد انقطع بذلك حبـل الزوجة الثانية ورأى ان أمرها قد انتهى مهما كان نوع أمرها في الاصل .

ومرت بضعـة شهور اصبـح « عوني » بالنسبة لصديقه ذكـرى حزينة تبقيها حية صورته المعلقـة على الحائط يطل منها وجهه الجميل الذي اعتاد الصديق ان يتأمله مليـا ويتفرس فيه وكانت ملامح الصورة تظهر للصديق وكأن معالمها تقول له: « وما هي حقيقة زوجتي الثانية انت الذي يجب عليك اكمال العمل الذي ابتدأت به اذ لا يعرفه أحـد غيرك أريد أن أعرف حتـى مـن وراء الغيب » .

وظل الصديق ينفض عـن نفسه هذه الافكار ويحاول اقصاءها عنـه ولكنها بقيت تقوى وتشتد يوما بعد يوم ، وهو لا يعرف ماذا يفعل الـى ان وصلت رسالة من الزوجة الثانية الى الصديق تطلب منه بكل ادب ان يأتي لزيارتها على عنوان معين ، لانها تريد ان تبحثـمعه في أمر خصوصي يتعلق بزوجها المرحوم .

ووجد الصديق فـي ذلـك الامر فرصته السانحة فرد فـي الحال يقول انه سيأتي في الموعد المضروب. وذهب الى العنوان فاذا به في بيت فقير في حي متواضع وبعد عبارات المجاملة قالت له :

« وصلتني رسالة مـن السفارة بخصوص نصيبي من ارث عوني وقد كتبت لهم ولكن اريد منك ان تؤكـد عليهم ما قلته في الرسالة وهو انـي لا أريد شيئا من أمواله وانا اتنازل عن حقي فـي أي شيء لزوجته العربية واولاده الاربعة فالحالة هناك صعبة واولاده احوج الـى أموالـه مني » .

ثم ابتسمت بمـرارة وقالـت : « مسكين عوني لقـد مات وهـو لا يعرف اني كنت اكذب عليه فقـد قلت له ان أهلي في كندا والحقيقة ان أهلي هنـا فـي هـذا البيت وسأعرفك عليهم بعد قليل لكنهم من الكاثوليك البسطاء المتمسكين بدينهم تمسكا شديدا . وأبي مصاب بمرض القلب فلو قلت له اني تزوجت مطلقا وليس من الكاثوليك لكانت الصدمة اكثر مما يتحمله قلبه . ولهذا فقد اخترعت عنوانا في كندا كنت أعرف صديقة تسكن هناك منذ أمد طويـل وقلت لاهلي اني أشتغل خارج لندن وآتي لزيارتهم او رؤية امـي او ابي بين الحين والآخر واساعدهم فـي بعض ما لدي من مال قليل » .

فقال الصديق : « ولكن لماذا لـم تقولي ذلك الـى عوني » فقالت : « لاننا قوم فقراء خشيت ان يظن انني تزوجته من أجل منصبه وماله والحق اني استحيت ان اعرفـه على أهلي » .

ثم اضافت : «ولكن ترك لي عوني كل ما أريد وهو طفل له في أحشائي سأسميه على اسمه. وهذا امر آخر دعوتك اليوم لاجله وهو انني سأحتاج الى معونتك في المستقبل لتكـون حلقة الوصل بينه وبين أهل أبيـه فأريده ان ينشأ على دين أبيه ويتعلم العربية ويتعرف علـى اهله فـي بـلاده » .

ووعدها الرجل خيرا وخرج وهو يتمنى لو ان سيارة مـن سيارات النقل الثقيلة تصدمه وتهرسه هرسا تحت عجلاتها .

لندن — **فؤاد جبور حداد**

بطرس البستاني

مؤاساة مهداة للصديق الرئيس الدكتور فؤاد افرام البستاني

★

ان يكن غاب بطرس البستاني ... فهو حي الآداب في لبنان
أنا درست كتبه للتلاميذ ... وعمري قد كان في العنفوان
وتراخى الزمان بعدا وقربا ... وهو يطفو بكتبه للعيان
أرخ الفكر والشعور عصور ... العرب مجدا من أقدم الازمان
لكأني أراه ملء القراطيس ... التي عاشها بهاد وباني
أرق العين بالتواليف حتى ... ملأ الارض ذكره بالبيان
هو كالبطرس القديم تعالى ... في حجاه فكان كالبنيان
مشعل في دنى العباقر يجري ... من يد في يد كيوم الرهان

يعجب الدهر كيف من ((آل بستان)) ... تشع الانوار بالعرفان
هل ((لدير الاقمار)) سر نبوغ ... يتجلى في منبت الريحان
حين يممت ديرهم وتنشقت ... هواه أنكرت اني فاني
غمروني من نبعه الثر علي ... أرتوي في وجودي الظمآن
ودعوني في ظل دوحة فن ... أتفيأ في زهرها الفينان
قل لرهبانه : من القمر البدر ... بلغتم سكناه قبل الاوان
حاولت نيله دهاقنة العلم ... بدولاتها وطول افتتان
وغزاة الفضاء في ارض لبنان ... يعيشون في سحاب داني
رفعوا في حماه ألوية العرب ... فكانوا للضاد والايمان

ايه يا ((بطرس)) الاديب التقينا ... يوم قد صفت معجم الفرسان
عند ((نخول)) ذي يراع وسيف ... و ((فؤاد الحبيش)) كالميزان
ولشيخ اللغى ((العلالي)) سمت ... خلته الاصمعي في سحبان
وبدا ((بطرس)) خيالا كشمس ... خلف غيم في صورة الانسان

دمشق

زكي المحاسني

من اعلام الفكر والادب في فلسطين

محمد علي الصالح

بقلم البدوي الملثم

* * *

في « طولكرم » المدينة الناتئة على بنيها ، وقد فرقتهم حراب الاستعمار وسلبتهم سهول المثلث الخصيب ، ولد « محمد علي الصالح التائه » عام ١٩١٢ في اسرة محافظة تميز أفرادها بالاريحية والتقوى ، ودرس في « المدرسة الفاضلية » ومن لداته فيها الشاعر الفلسطيني المعروف عبد الكريم الكريم « ابو سلمى » وقد ربطتهما صداقة قوية ، وفي اوقات الفراغ كانا يحتضنان الطبيعة في السهل الساحر ، يطالعان قصصا شعبية وعلى الخصوص قصة بني هلال ، ويتناشدان الشعر ويتباريان في نظمه . وفي هذه الفترة بدت ارهاصات الشعر على كليهما تبشر بمولد شاعرين !.

وبعد أن أكمل محمد علي الدراسة الابتدائية في مسقط رأسه دخل « الكلية الاسلامية » في بيت المقدس التي أسسها المجلس الاسلامي الاعلى هناك واختار لها نخبة من رجال التعليم والفكر امثال الشيخ أمين الحافظ ورفيق التميمي وعجاج نويهض وعادل جبر ودرويش المقدادي ، وامضى فيها خمس سنوات واصاب خلالها الوانا من المعرفة واخذ يقرض الشعر وينشر نفثاته في الصحف الفلسطينية بتوقيع « بدوي الوادي » وقد شجعه على النشر الاديب الناقد احمد شاكر الكرمي صاحب جريدة « الميزان » الدمشقية .

وفي صيف عام ١٩٢٤ زار طولكرم شاعر الاقطار العربية خليل مطران فرحب به محمد علي بقصيدة نالت استحسانه وتنبأ له بمستقبل زاهر في دنيا عبقر .

والتماسا للمزيد من اللغة الانكليزية عاد الى القدس وانتسب الى « الكلية الانكليزية » لكنه لم يطل الاقامة فيها اكثر من ستة شهور اذ لم يلائمه جوها الاجنبي فعاد الى طولكرم وارسل طلبا الى مديرية المعارف الاردنية فاستجابت لطلبه وعينته معلما في مدرسة كفرنجه (من اعمال جبل عجلون) وسرعان ما قدم عمان وقُابَل فيها المناضل المرحوم سعيد العاص واطلعه على أمر تعيينه في سلك التعليم ، لكن العاص شجعه على العمل في المجال الصحفي واصطحبه الى صديقه المرحوم المحامي صالح الصمادي صاحب جريدة « صدى العرب » فرحب به الصمادي ووافق على ان يتولى تحرير جريدته ، فاستقال الصالح من جهاز التعليم وزاول عمله الجديد وادخل على الجريدة ابوابا جديدة لم يعهدها القراء من قبل . وفي هذه الفترة كان الاردن على أبواب تاسيس مجلس تشريعي وبعد ان تمت الانتخابات كان اول عمل نظر فيه المعاهدة الاردنية ــ البريطانية التي قابلها الرأي العام الاردني والصحافة الحرة بالنقد والتجريح ، وتناولها رجال المعارضة في الاردن بمقالات حملت تواقيع مستعارة ، ومن الطبيعي ان تكون «صدى العرب» منبرا لتلك الحملة واستحدث الصالح بابا في الصحيفة بعنوان «المجلس التشريعي في المنام » ونشر مقالا شديد اللهجة اثار حفيظة حسن خالد ابو الهدى الصيادي رئيس الحكومة الاردنية وقتئذ فاستصدر ارادة من الامير عبدالله باغلاق « صدى العرب » والقاء القبض على محمد علي الذي اختبأ في بيت صديق له وبعد ثلاثة ايام استسلم لرجال الامن فاحيل على المدعي العام في عمان وقرر توقيفه لكن تاجرا اردنيا أريحيا قدم كفالة مالية الى حين انتهاء المحاكمة وبذلك حيل بينه وبين السجن.

وبعد جهد بذله رجال المعارضة لدى الامير عبد الله عدلت السلطات في الاردن عن محاكمة محمد علي وبادر رجال الامن الى ابعاده الى فلسطين ، فبلغت بيت المقدس وشن في الصحف العربية حملة عنيفة على الاوضاع التي كانت تسود الاردن ونشر مقالات في بعض الصحف كانت سببا في منعها من دخول الاردن .

ونتيجة للحملة الصحفية التي قادها محمد علي وصور النفوذ البريطاني في تلك البقعة العربية عاد الى طولكرم فاستقبله مواطنوه بالترحيب وأثنوا على مواقفه الجريئة وتلقى عروضا من مؤسسات قومية للعمل فيها فاستجاب الى عرض تسلمه من الشيخ كامل القصاب وعين معلما في « المدرسة الاسلامية » بحيفا التي كان القصاب يتولى ادارتها ، واتخذ من هذا الثغر دارا لاقامته الدائمة وسلخ فيها زهرة شبابه .

وانطلاقا الى عمل أكثر حرية استقال من عمله واسس مدرسة خاصة اسماها « مدرسة الاستقلال » وقامت بينه وبين الكثيرين من زعماء حيفا واحرارها صداقة قوية وأسهم في تحرير جريدة «اليرموك» مع الصحفي العربي اللبناني هاني أبي مصلح .

وفي حيفا فاضت قريحته بالشعر وتسنى له ان يكون على اتصال وثيق بالحركات الثورية العربية التي كانت تعتلج في صدر حيفا المدينة الجبارة مثل حركة الشهيد عزالدين القسام وغيرها من الانتفاضات القومية .

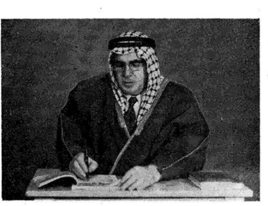
وفي حيفا اختارته جريدة « الجامعة الاسلامية » اليافية معتمدا لها ومحررا فيها فاخذ ينشر حديثا يوميا يحتل الصفحة الاولى تحت عنوان « حديث الى الشباب » ، وقد نجح هذا الحديث الصباحي واقبل الشبان على قراءته ، لكن هذا الحديث كان مصدر ازعاج للسلطات المحتلة فطفق رجال المباحث يراقبون حركات محمد علي ، ويبعدون التقارير السرية عن كل خطوة يخطوها ، ويصورون للمسؤولين ان محمد علي الصالح يقوم على رأس منظمة ثورية سرية .

وفي عام ١٩٣٦ كانت الحالة السياسية في فلسطين تغذ مسيرها نحو التأزم ، فقويت شوكة الحركة الوطنية وهب المخلصون الى المناداة بضرورة تغيير اساليب النضال واللجوء الى القوة واعلان الاضراب العام في فلسطين وقامت التظاهرات الصاخبة واستعمل المتظاهرون السلاح واوشك زمام الامور ان يفلت من يد السلطات البريطانية .

وفي نهاية نيسان ١٩٣٦ قامت في حيفا مظاهرة عنيفة لم تشهد لها المدينة مثيلا ، وقد اشتركت فيها عناصر الشباب والمسلحون واخترقت شارع الملوك ، وهو خليط من العرب واليهود ، فلم تتمكن الحكومة من قمعها او السيطرة عليها . وتلاحم الطرفان فسقط من اليهود عدد من القتلى .

وبعد ان سيطر رجال الامن والجيش على الموقف آمنوا بأن الصالح هو صمام هذه المظاهرة وقائدها فاعتقلوه وقدموه للمحاكمة وعاملوه معاملة قاسية ثم وجهت اليه النيابة العامة تهمة قيادة تلك المظاهرة والتسبب في القتل وعدم الاذعان لاوامر رجال الامن بالتفرق . وبعد محاكمة استمرت عدة شهور ، لكثرة ما حشدت لها النيابة والدفاع من شهود ، قضى قرار القاضي البريطاني المنفرد بسجن محمد علي مدة ٢٤ شهرا .

وبناء على طلب الدفاع اوصت المحكمة بمعاملته معاملة خاصة ، فادخل سجن عكا الكبير ونقل الى سجن الاجانب الملحق بهذا السجن ، غير ان السجناء العرب ظنوا ان السلطات البريطانية تعامل هذا الوطني المناضل معاملة سيئة فاضربوا عن الطعام حتى سمح لهم بمقابلته والاطمئنان على انه يلقى معاملة حسنة . واثناء محاكمته شنت الصحف



البدوي الملثم

اليهودية حملة عنيفة عليه ووصفته بالمحرض الاكبر على قتل اليهود .

وبعد انتهاء مدة الحكم عليه نقل الى معتقل المزرعة في عكا بموجب قانون منع الجرائم ومكث فيه ١٩ شهرا . وعند اعلان الحرب العالمية الثانية اخذت السلطات البريطانية باطلاق سراح المعتقلين على دفعات لتتفرغ الى ما هو اهم واخلت سبيل محمد علي مع آخر قافلة من قوافل المعتقلين ، فعاد الى حيفا ليستأنف عمله في « مدرسة الاستقلال » التي اسسها هناك ، لكن السلطة لم تطمئن الى وجوده في حيفا فاخذت تضايقه وفرضت عليه اثبات الوجود مرتين في اليوم الواحد ثم عادت فاعتقلته وقررت ابعاده مخفورا الى طولكرم وفرضت عليه اثبات الوجود مرة في اليوم .

وفي طولكرم اسس محمد علي فرعا لجمعية العمال العرب في حيفا ، واختاره اخوانه سكرتيرا لهذا الفرع فوهب الحركة العمالية كل ما يملك من جهد وطاقة وخاض مع زملائه امناء سر الجمعية معارك عمالية نضالية حتى ازدهرت الجمعية وقويت شوكتها وبرزت شخصيتها في الوجود الفلسطيني كعامل فعال له اثره في التوجيه والتوعية ، لكن اغتيال سامي طه الامين العام للجمعية في حيفا قلص نفوذها كما ساعدت الاحداث السياسية التي ألمت بفلسطين على الحد من نشاطها .

وليؤدي محمد علي واجبه نحو مجتمعه اقبل على المجال البلدي ورشح نفسه للانتخابات البلدية في طولكرم وخاض اعنف معركة عرفتها هذه المدينة . وبدعم من العمال والشباب فاز بالانتخابات وشارك زملاءه في خدمة مسقط رأسه . وفي عام ١٩٤٧ استأنفت « الهيئة العربية العليا » نشاطها في القدس واختارته للعمل في جهازها ووكلت اليه امر تشكيل اللجان القومية والاشراف على التعليم الاهلي . وبحكم عمله هذا انتقل الى بيت المقدس وشرع يعمل مع العاملين من اعضاء « الهيئة العربية العليا » وامضى اكثر وقته متجولا في مختلف المدن الفلسطينية لدراسة الاوضاع الى ان صدر قرار التقسيم المشؤوم فتدهورت الامور ونشب القتال بين العرب واليهود واخذت المدن الفلسطينية تسقط الواحدة تلو الاخرى بفعل المخطط الانكلو - اميركي واحتل اليهود اغلب الاحياء العربية . وهنا عاد محمد علي الى طولكرم ليعمل مع لجنتها القومية ويشارك في الجهاد العربي . ولما دخل جيش الانقاذ طولكرم تعاون مع المسؤولين ووضعوا امكانات المدينة وقضاء بني صعب تحت تصرف هذا الجيش والجيوش العربية الاخرى التي أمت فلسطين دفاعا عن حياضها، لكن فلسطين طارت .. وتهودت .. رغم أنف المنقذين المرتجلين ! .

وبعد ان اجتاحت النكبة الاولى فلسطين سلب العدو الماكر سهول طولكرم وبلغ حدود بلديتها ولم يبق للاهلين الا بعض المساكن ، وتسلم موارد رزقهم من غير قتال وفقد محمد علي ، مع من فقد من الاهالي ، ارضا يملكها في ذلك السهل الاخضر وكانت آخر مورد رزق لـه ، وتفشت المجاعة بين العرب واخذوا يهاجرون الى الاقطار العربية وتهيأ لشاعرنا ان يهاجر الى السعودية ويعمل في الرياض لكن اموره تعثرت فقرر العودة الى الاردن ، وظل بلا عمل الى ان سهل له الاريحي الاستاذ محمد اديب العامري ، رئيس ديوان الموظفين وقتئذ ، العمل في ملاك وزارة التربية والتعليم الاردنية وعين مديرا لمدرسة اعدادية في طولكرم.

نماذج من شعره : هجر المناضل الشاب فريد يعيش ، خريج الجامعة الاميركية في بيروت ، التدريس في ثانويات نابلس والتحق بالثورة وخاض معاركها ، لكن السلطات البريطانية القت القبض عليه اثر حركة تطويق واسعة وزجت به في غياهب السجون ، ثم ما لبثت ان افرجت عنه بسبب مرضه فغادر فلسطين الى العراق ليعمل في هذا القطر الشقيق مفتشا في وزارة التربية والتعليم ، لكن المرض الذي لم يشفق على شبابه عاوده وشدد عليه قبضته فعاد الى نابلس ليموت بين اهله وذويه ، وما هي الا شهور قلائل حتى لحق بربه .

ويوم كان فريد يقود احدى كتائب الجهاد في معارك جبل النار حيا محمد علي هذا المناضل الثائر بقوله :

طاطيء لـه الهاما … واضفر عليه الغار

•

لله قد قاما … وللمعالي ثار
لبى على الفور … ندا فلسطينا
وانقض كالنسر … على المغيرينا
أحيا على الدهر … « بدرا » و « حطينا »
وراية النصر … خفاقة حينا
ان نكست عاما … فما بهذا عار
العار ان ناما … شعب على استعمار

فتى ثبت الجنان … في الموقف الحائر
يدور بالاقران … كالفلك الدائر
تراه من ميدان … لآخر طائر
الى الدما ظمئان … حسامه الباتر
بالحرب قد هاما … منذ انتشى وصار
فشب مقداما … لا يصطلى بنار

سل عنه في الجلاد … جيش العدا المجتاح
هل اخلف الميعاد … يوما او استراح ؟
كم اشترى بالزاد … ما احتاج من سلاح
أبعد ذا جهاد ؟ … ابعد ذا كفاح ؟ !
ما عاب او لاما … ولا اشتكى او حار
بل خف مقداما … للهول والاخطار

مطلبه استقلال … والثمن الدماء
ما هزه الزلزال … يثنيه للوراء
يهب للقتال … كالسهم في الفضاء
آمن بالافعال … لا الخطب الجوفاء
فتح أكماما … للمجد والفخار
وتوج الهاما … وخلد الآثار

خاض الوغى جهرا … للقاهر الغلاب
ولم يثر طرا … للجاه والالقاب
حسب الفتى فخرا … ان كان ليث الغاب
من روحه أثرى … لا من جنى الاسلاب
حاشاه احجاما … قبل نوال الثار
فانه راما … موتا او انتصار

أنذره « المندوب » بالسجن والشنق
فاشتد في الوثوب وازداد في السبق
في غضب مشبوب وثورة صدق
والنصر يا «واكهوب» (١) لكل ذي حق
الظلم ان داما يفيض بالاوزار
والجو ان غاما ينذر بالامطار

يا جبل النار اعل على الجبال
في كل مضمار تهزأ بالاهوال
رئبالك الضاري عدا على الرئبال
في كنف الباري عشت مدى الاجيال
هدمت أصناما وان بها أغمار
بنيانها التاما على شفير هار

وربطت بين محمد علي الصالح وابراهيم طوقان شاعر فلسطين الاكبر صداقة عميقة الجذور ، وكان من اعجاب محمد علي ان تأثر بأسلوبه خاصة في القصيدة التالية التي ألقاها في مؤتمر الطلبة العرب الاول المنعقد في يافا عام ١٩٢٩ :

حي العلا حي الشبابا حي الرواسي والهضابا
من كل مفتول السوا عد ، ما رمى الا أصابا
أمضى من البيض الرقا ق ، ومن ليوث الغاب نابا

حي الشباب لموطن أضحى من الفوضى يبابا
أضحى على مضض يسا س ولا يرى في الحيف عابا !
سلبوه كل صفاته لما حبوه الانتدابا

يا موطني هاك الشبا ب اذا اردت به انقلابا
هاك النشاط مجسما هاك الاسنة والحرابا
من كل حر ان دعا داع تحفز واستجابا
ندب اذا شهد الوغى ما خلته الا عقابا !

لم يثنه صرف الزما ن ولا أضل له صوابا
دفع الاذى مترفعا ومن النجيع سقى الترابا
ومن ارتضى حمل الاذى فقد ارتضى سما وصابا

وطني أزف لك الشبا ب فدع بحرمتك العتابا
قد ضج مما نشتكي فأتاك معتذرا وتابا
والله يقبل عبده ان كان أخلص او أنابا
حي الشباب مشمرا ما استل سيفا او كتابا
ما ثار لاستقلاله ما زال يستجلي اللبابا
ما ظل في أخلاقه مثلا رفيعا او شهابا

هاك الشباب لغاصب حتى يناقشه الحسابا
حتى يذيق أخا الحماية عن جنايته العذابا
حتى يزلزل عرشه ويدكه بابا فبابا
والحق يؤخذ عنوة ويكون عذبا مستطابا !

وفي عام ١٩٣٥ فجعت فلسطين باستشهاد البطل الشيخ عزالدين القسام فذرف العرب في كافة اقطارهم دموع الاسى والزفير على هذا الشهيد الكبير ونظم محمد علي في ذكراه مطولة منها :

افتتح بالفداء والالام منهج الحق يا دم « القسام »

ومر الناس ان يكفوا عن القول فلم ننتفع بصوغ الكلام
انما نحن في بلاء عظيم ليس يجدي به سوى الصمصام

من رسولي اليك ألقي اليه كيف زلزلت دولة الاوهام
كيف أبطلت في انصبابك للحق زكيا عبادة الاصنام
يا دما لم يرق على سرر الذل ، ولكن أهريق في الآجام
قد طريت القرون حتى شهدنا بك عهد النبي والاسلام
فترة في الحياة ان تك يوما انما نيفت على ألف عام !

قم الى غاب « يعبد » غير وان قم الى ذلك المكان الحرام
وسل الغاب عن عصابة صدق حينما اقبل النهار الدامي
موضع لو يجيب أصدقك القول وخير الحديث عند حزام
احدق الجد بالكماة وكانوا قاب قوسين من رصاص الرامي
وهم يسلون من كل حدب ويدبون تحت جنح الظلام
وأتى الفجر مؤذنا بقراع عبقري لله والارحام
لس من أجل مصب متداع موشك ان يداس بالاقدام
ورأى الغاب بعد ذاك نزالا شاب منه الرضيع قبل الفطام
أقدم الثائرون فيه على الموت جريئين أيما اقدام !

يتلقون بالصدور رصاص الجند طورا وتارة بالهام
ولهم كرة تهز الرواسي ومضاء يفل حد الحسام
برزوا يتبعون شيخا جليلا من قدامى المشائخ الاعلام
ما رأت منه حادثات الليالي غير ندب مجرب مقدام
فرموه من نارهم بشواظ فتردى على الثرى بوسام
وقفة لم يدانها في علاها غير ايام « خالد » في الشام !

ومن شعره التأملي ابيات عذبة يخاطب بها نفسه مشيرا الى غدر الزمان ، وتخلف الاخوان :

ألمي اذا ما ثار بي افتر عن سن ضحوك
أفتر حتى لا يرى وغد دموعي او شكوكي
فالهم لي ، ما لي به في الناس من أحد شريك

يا نفس قد ضاع اليقين فهل ترى ألقاه فيك ؟
هل ان لجأت اليك يوما ، تحدبين على أخيك ؟
يا لغزي الباقي ويا اغلى من الذهب السبيك
قد حار فيك اولو العقول برغم ما قد حللوك
زعموك جامحة وطورا بالرضية لقبوك
زعموك مرهفة الشعور وحاولوا ان يجرحوك
زعموك « دكتاتورة » وسعوا اليك ليحكموك
ولقد تجنى الزاعمون لانهم لم يفهموك
يا نفس قد غدر الصديق وما استقام على سلوك
والدهر خان وجاء معتذرا بمنطقة الركيك
والحظ ما في الحظ يا نفسي سوى حسك وشوك
والناس ان لم يظلموك ، فانهم لم ينصفوك

يا نفس صبرا ان ربك للعلاء سيجتبيك

وفي حالة من حالات يأسه ارسل محمد علي الصالح زفرة من زفراته الحرى وهي ظاهرة تنم على تشاؤمه ، وتنتاب كل شاعر رهيف الحس كشاعرنا الصالح :

أملي تساقط زهره من بعد ما دنت القطوف
كتساقط الاوراق داهمها بموسمه الخريف

---

(١) واكهوب : هو السير آرثر واكهوب المندوب السامي البريطاني آنذاك في فلسيطن .

أحيا وما في جعبتي ... الا الرزايا والحتوف
في مهمه مالي بها ... خل على البلوى عطوف
وتطوف بي أشباحها ... وتلم بي منها الطيوف
وأخف من آلامها ... ما أنضجت مني السيوف

كم ذا ابتسمت وكم ضحكت، ... وفي فؤادي ما يخيف
وبنيت من حلو المنى ... قصرا فهدته الصروف
كم قلت ليس سوى الظروف وما تغيرت الظروف
ودجى سيمحوها الصباح ... فكان في شمسي كسوف
وذا انتهيت من التليد ... يزورني هم طريف

ما لي اذا ناديت عزمي ... بان من عزمي عزوف
أتراه يغدر بي وما ... في طبعه غدر وحيف
ما لي أحس به خبا ... فكأنه نور ضعيف
وكأن عصف رياحه ... لينا يطاوله الحفيف
قد كان لا يثنيه عن ... غرض مئات او الوف
كم ذللت وثباته ... صعبا ، وكم رغمت أنوف
ولكم مضى وكأنه ... قدر على الدنيا يطوف

والان قلم ظفره ... فاذا به لدن أنوف
يرضى بأبسط عيشة ... ويفوق حاجته الرغيف

ورغم اليأس الذي استحوذت أشباحه على نفس شاعرنا كان للنسيب نصيب من شعره ، واسمعه يخاطب « ليلى » الممعنة في صدها ، المخلفة في وعدها ، لكنها صدقت هذه المرة وتم اللقاء :

لقد صفا لي مرة دهري ... وحل بعد الهم ايناسي
في روضة ريانة بالندى ... كأن حصباءها من الماس
خلوت في ظلها الى رشاء ... مثل قوام الرمح مياس
كم قد سعيت للقاء به ... أحبس للشوق حر انفاسي
واخفض الخطو الى موعد ... كيلا تراني عين حراسي
فلا اراه ولا ارى أثرا ... منه فيطفىء عني وسواسي
ديدنه ان يمضني المأ ... حتى يشيع الغرام في الناس
لكنه مرة تعاهدني ... من فيض احساسه لاحساسي
وقال لي : اقسم ان نلتقي ... بعد العشا في روضة الآس
فقلت : هل يخلف بعد الذي ... كان من الايمان ذا القاسي
وهل ترى ينسى وعهدي به ... لم يك قبل اليوم بالناسي
فقمت والعيون قد هجعت ... بعد اذان وقرع اجراس
والبدر في اضطراب مشيته ... ينم عن لهفتي وايجاسي
وجاء مختالا خفيف الخطى ... والنجم مشدود بأمراس
يقوده الحب كما قادني ... الى مكان وارف كاس
الى شجيرات كعش القطا ... ملتفة فيه واغراس
الماء جار خافت صوته ... والطير نامت بعد اعراس
هناك لاقاني ولاقيته ... لقيا الغنى من بعد افلاس
عانقته والعيون التقت ... وراسه مالت الى راسي
فقلت : هل تمنحني قبلة ؟ ... قال : وهل في ذاك من باس ؟

ويوم كان شاعرنا نزيل سجن عكا الرهيب تذكر « ليلاه » فبعث اليها هذه الابيات :

نأى عني فارقني ... وان لم ينأ عن فكري
أطوف به وأسأله ... كما طفت بذي سر
حديثا عبقري الحب ... مطويا على الطهر
أخف من الصبا حملا ... وأطيب من شذا الزهر
نقشت حروفه حرفا ... على حرف على صدري
ولا أنسى معانيه ... ومغناطيسه عمري

احبك يا منى النفس ... وان لوحت بالهجر
احبك خالصا للحب ... في سري وفي جهري
وأرضى بالذي ترضا ... ه من خير ومن شر
لك الامر فلا تعصى ... ولي الاذعان للامر
وانت برغم معتبتي ... بلا اثم ولا وزر

اتذكر يا شقيق الروح ... كم لي فيك من شعر ؟
وكم ارهفت مستمعا ... واثنيت على دري
اتذكر ام ترى تنسى ... وانت أحق بالذكر
عهودا قد عقدناها ... على منعطف النهر ؟
لئن ناقشتني قولا ... بقول ان لي عذري
فقد اصبحت معتوبا ... ومغلوبا على امري
ولست مغاليا ان قلت ... ان السجن كالقبر

فدى وطن شغفت به ... على البأساء والخير
ولم أنهل على ظماي ... سوى من حوضه المر

حبيبي ما الذي تخشاه ... من عذالك الكثر ؟
أجهرا بعد كتمان ... فيا شوقي الى الجهر !
فقلبانا قد ائتلفا ... على شرع الهوى العذري !

وكانت « ليلى » في طولكرم محبة للشاعر ، عاشقة له ، وكان وردها عذبا صافيا من الكدر لكنها ذات مرة اغلقت بابها دونه فأرسل اليها معاتبا :

لقد بدرت يا « ليل » منك بوادر ... بأي تفاسير المحبة تشرح ؟
يقولون قد اغلقت بابك دونه ... فحتى متى يا «ليل» بابك يفتح ؟
لقد برحت بي في غرامك نشوة ... اخاف اذا طالت تنم وتفضح
اخاف اذا شرقت قالوا الم يكن ... له عن هوى «ليلى» مراح ومندح
وأخشى اذا ما همت يوما لوجهة ... يقولون في «ليلى » يهيم ويسرح

هو الحب يا «ليلى» التويت بناره ... وداهمني منه البلاء المبرح
وأصبح قلبي رازحا تحت عبئه ... فهل قلب «ليلى» مثل قلبي يرزح؟

وسمع شاعرنا ذات مساء « ليلى » تغني وترسل صوتا عذبا جميلا ، وكانت من قبل تنكر عليه هذه الهبة الربانية ، فأرسل اليها معاتبا شاكيا :

اني سمعت الصوت ما أعذبه ... مفرحة أنغامه مطربه
يدب في النفس دبيب الشفا ... ويبعث العزم بذي المتربه
ما رنة الكروان الا صدى ... ترجيعة من بعض ما طربه

كتمته عامين عن مسمعي ... وبخت فيه دون ان أطلبه
ارسلت في جنح الدجى لحنه ... فشق من جنح الدجى غيهبه
ومدت الانجم اعناقها ... تصغي له كوكبة كوكبه
يا عجبا .. الليل اولى به ... مني ؟ لحال لك ما أغربه !
أم ثم سر يا فتاتي وهل ... في الحب بعدالعهد من ذبذبه ؟

أشكوك هل أشكوك ؟ اني اذا ... اشكوك للحب ومن جربه !
ولست ابغي ان ازيد الجوى ... نارا .. وما الشكوى سوى معتبه!

عمان ــ الاردن

البدوي الملثم

برمـــانا

للشاعر الانكليزي « جيمس الروي فلكر » الذي عاش زمنا في « برمانا » بلبنان

اواه ! ألن يتاح لي الرجوع ، يوما ، الى وطني
لك الله ، يا مروج انكلترا المتلألئة بعد الامطار
مدي بساطك الاقحواني الرحيب
طوقي روابيك الخضراء بورود البراري وبراعم النوار
ويا صباح العمر البعيد
والجداول الصافية تنساب على الحصباء
يا ملاعب لهوي ومراتع صباي
ادخري لي حبك . واترعي لي كؤوس الصفاء
ويا غابات الصنوبر العطرية اللقاء
أجناد الشاطئ الجنوبي القاتم
رفاق الود الفتي الحالم
احتفظي لي بثمالة الاماني وصبابة الاغاني التي
كنت تشدينها لي يوم كنت صبيا ، أجلس
وحيدا تحت شجرتي الاثيرة . ألقي اليك
السمع ، ساهما ساجيا وعيناي سارحتان على
صفحـة المـاء !
ويحك ! أيتها الصنوبرات الماكرة الهوجاء
لشد ما أرتني الحياة بطلان ما كنت تشدين
لقد نفخت الدنيا حولي من كل صوب
بابواقها الدهرية العتيقة .
وارتجت الارض بزماجر غاباتها الوحشية السحيقة
وأزجت مهاوي العباب أشباحا تعلو متون الانواء
بينما تنتهي الى سمعي من قيثارة الزمن ،
وتهاويل طيوف تمتطي صهوات العواصف الهوجاء
نقرات مبهمة بعيدة وبحات نغمات مقطعة شريدة
لكم سمعتك تهينمين أيتها الاشجار
تهمسين في أذني . محدثة عن بحار
غارقة في غمار القدم .
عن شواطئ شاسعة قصية
تتلاطم الامواج على سواحلها الرملية
وتتهادى الحلزات مختالة بابراجها اللؤلؤية
حيث الصخور الشاهقة منحوتة الجبهات
بارزة النتوءات
حيث السهول تموج بالازهار ، كأنها شعل من نار
ههنا دوني في الوادي الظليل
تتمايل بواسق النخيل
وهناك على الشاطئ تتكسر الامواج
وهنالك ، في حضن الضباب والنور والسكون .
ترقد مدائن لبنان في اكناف حلم عميق
حيث كان ملوك صور
وملوك صور سادوا في قديم العصور
سلالات متتالية مهيمنة دون انقطاع
وهنا .. هنا من حولي
تسبح قنات الجبال الثلجية الشماء
في عنان الفضاء كأنها حمائم هائلة بيضاء
عائمة على غدير السماء
اني لاذرع الغابة ، على هذه التلال الوفراء
حيث تشمخ اخوات لك يا صنوبرات بلادي
النائية سامقة الى العلاء
وحين يرخي الشفق الازغب جنحه الناعم الوثير
فلا يلوح لناظري البحر ولا الغدير
وتخفي عني الجبال ومهابط الرمال
يقف قلبي واجفا مرهف الاصغاء .
آلا ، فان للصنوبر ، أينما كان ، وشوشات
ووسوسات وآهات وغنات
أصداء عصور وهمهمات دهور
ما أروع جمال السماء من خلال الغصون
موشحة بغلائلها الذهبية الداكنة
أو الزرقاء القاتمة
وما أهنا الاستلقاء على هذا البساط الرخي
الممدود من اوراق الصنوبر الابرية السمراء
تتخايل حيالي عظاية مزهوة خضراء
وأنفاس القيصوم . وعبير الخزام .
لعلي أنسى وحشتي وآلامي
لعلي أسترد ما أضعت من أيامي
وتعود بي الى وطني أضغاث أحلامي .

بيت مري ـ لبنان — عبد الله النجار



كمال رستم

اضواء على الرواية الجديدة

بقلم لوران لوساج

عرض وتلخيص : كمال رستم

* * *

بنية الرواية الجديدة

أيا كان هدف الكاتب او وجه الحياة الذي يعالجه ، تظل الحكاية قلب الرواية – اعني ما تفعله الشخصيات وما يحدث لهم وسواء كان ما يحدث لهم جثمانيا كما في « الفرسان الثلاثة » او نفسيا كما في « اميرة كليف » او اجتماعيا كما في « جيرمينال » تظل الرواية نوعا من المغامرة . والرواية الجديدة وقد اوقفت نفسها على غايات ابستيمولوجية تسجل مغامرة ميتافيزيقية اذا لم تسجل المغامرة الميتافيزيقية ذاتها . وغني عن البيان ان غرض الكاتب ومزاجه سواء كان نفسيا او اجتماعيا او غير ذلك يسلم المغامرة الى نسب معينة وشكل معين .

فنموذج « ديماس » للرواية يتقدم عن طريق الكشف عن الشخصية والمواقف التي تخلقها الشخصية ونموذج « زولا » عن طريق اظهار العلة والمعلول في عالم الظواهر الاجتماعية . وينطوي كل نموذج اساسا على احتياجاته من الطول والعرض ، بداية مناسبة ، مدة من الزمن والنهاية . والرواية الجديدة شأنها شأن الروايات الاخرى نمت شكل سرد خاص ليواجه الاحتياجات التي فرضتها الاهداف والاهتمامات الجديدة .

ففي رواية كرواية « سأعيش حب الاخرين » من الواضح ان « جان كبرول » يروي من وراء مغامرة ارمان الملحة العظيمة لكل الانسانية . فهذا البطل الذي ظهر مبتدئا بأحساسات جسدية يدرك الاشياء والكائنات تدريجيا . فنحن نقرأ في الصفحة الاولى البيضاء من الجزء الثالث هذه الكلمات : « بينما كان ارمان في الجزئين الاولين ينمو في عالم من الاشياء نظمت بطريقة عدائية او سلمية فانه الان يتنبه فجأة الى كل ما يصنع الانسان ويحطمه ويمجده . فالوحوش تصعد عيونها الدهشة الى هذا .. الطفل الوضيع » والكائنات تحييه وامرأة تهييء له فرصة ان يعيش حبه .. ان ارمان هنا ليس الا رجلا فقط بيننا لانه لا توجد مسافة مقطوعة بين الكائنات . ان تطور الانسان يمكن ان يقاس بطريقة حبه ، ونظرا لقضائه مدة طويلة في مرحلة الطفولة حيث لا تعرف بوضوح « الانا » و « اللاانا » احب حبا جزافيا عالة على الغير . اما الان فبفضل ادراكه الحاد اصبح في مستطاعه ان يعرف عذابات الغيرة ولا يحتمل احدا بينه وبين « لوسيت » .

وتتحرك روايات « صمويل بيكيت » غير الدرامية في اتجاه مضاد . انها تصور لا صعود الانسان وانما هبوطه وتظهره عائدا الى مستوى من الوعي اكثر انحطاطا حتى عن المستوى الذي ابتدأ عنده « جان كبرول » . فالحكاية التي لا يفتأ يرويها « بيكيت » في « مولوى » و « مالون » الخ .. هي الانفصام النهائي والانهيار للملكات العقلية ، وروايات الكتاب الجدد الاخرين اقل ملحمية في المجال ولكنها تعكس او تفسر اوجها للمغامرة الانسانية ، بحث الانسان عن المعرفة والفهم . من هذه الروايات رواية « تمضية الوقت » « لميشيل بيتور » وفيها يكافح « جاك ريفيل » ليصل الى الحقيقة الكامنة خلف كل الدلائل التي تربكه والعلامات التي تواجهه اثناء سيره في شوارع المدينة الانجليزية ، انها ايضا « حدوته » « المساحات » لالان روب جريبه التي يحاول فيها «ولاس» بيأس ان يحل لغز المدينة الواقعة على الميناء اثناء سيره في طرقاتها ، هذا التجوال بلا هدف .. المشي في الشوارع الخالية هما النموذجان الاثيران لتصوير اقامة الانسان على الارض ويبدو الكتاب الفرنسيون هنا مدينين لجيمس جويس لان ابطال الرواية الجديدة اساسا هم جوابو آفاق .

والدافع قد يكون غير محدد تماما فأبطال فيرول يبدو انهم يتجولون بلا هدف ناظرين فقط ، واخرون بالرغم من انهم يبقون في المقام الاول اوعية مسجلة الا انهم يلاحقون شيئا .. بحارا عند « مارجريت دبراس » او

نجمة عند « كاتب ياسين » وآخرون يبحثون عن حل لسر معين وهنا يتحد نموذج الاوديسة مع الرواية البوليسية ليؤسس العقدة فروايات « المساحات » و « تمضية الوقت » و « الميزانسين » تدين بشيء لكونان دويل » ومن جاءوا بعده فالرواية الاخيرة « لكلود اوليه » المؤلف المهندس الذي يبحث عن كوبري عبر الصحراء الافريقية يحاول ان يعيد بناء الظروف الغامضة التي مات فيها سابقه والتي طعنت فيها فتاة من المنطقة . ولكن هذه الروايات ـ خلافا للروايات البوليسية ـ تفشل في تقرير انه كانت هناك اية جريمة قتل ، والجو الغريب الذي يتحسس فيه المهندس ـ مثل « جاك ريفيل » و «ولاس» ـ طريقه بحثا عن الحقيقة اكثر ايحاء بعالم الهلوسات عند « فرانز كافكا » منه بعالم كل يوم المألوف الذي يستخدم كخلفية لاغلب روايات الجريمة والغموض الحديثة . وعلاوة على ذلك فان روايات البحث هذه ـ خلافا للرواية البوليسية ـ ليست روايات مخططة او مرسومة تستهدف منع القارىء من تخمين النهاية بقدر الامكان لان الروائي الجديد لا يعرف هو نفسه ماذا ستكون النهاية فعليه ان يخترع اثناء تقدمه لانه اذ كانت شخصياته صادقة طبقا لفلسفته فيجب ان يمتنع عن اية فكرة مسبقة عما سيحدث لهم .

عرف « بيتور » الرواية بأنها بحث ، وقال «سارتر» ان الرواية الحقيقية الوحيدة هي رواية الامتداد الزمني وقد التقت بنية البحث بطريقة تدعو للاعجاب بهذين التعريفين الا ان التقدم بدون الارتجال يزيف المغامرة الانسانية التي تهدف الرواية الجديدة لتصويرها كما انه يقصر عن اظهار شخصية الانسان . فاذا نظرنا عن قرب لاحدى روايات « بيتور » ولتكن هي رواية « السواد » لرأينا كيف تتطور الاحداث عرضا . ففي حدود البداية والنهاية اللتين يعتسفهما « كيرول » لرواياته تخترع مغامرات البطلة كلما تقدمت الحدوتة « وبالمثل تعطي روايات « كلود سيمون » الشبيهة بروايات « فوكنر » انطباعا قويا بأنها مخترعة وهي تتقدم . وتقول «مارجريت دبراس » عن رواياتها « انني اتقدم فقط على غير ثقة » . ومن الممكن ان يكون «يو نسكو » قد اخذ على عاتقه ان يتكلم نيابة عن الروائيين الجدد حين قال عن نفسه «عندي ان كل مسرحية هي عبارة عن مغامرة ، مطاردة ، اكتشاف الكون الذي يكشف عن نفسه لي وفي حضوره اكون اول المندهشين » ؟ والشخصيات في الروايات الفرنسية الجديدة ما ان يخلقها المؤلف حتى يدعها وشأنها لتعتمد على نفسها ولتواجه مصيرها بحرية شأنها شأن الناس كما يقول « سارتر » .

وتتحدث «مارجريت دبراس» عن روايات البحث التي تكتبها باعتبارها روايات عن معجزة تتوقع ولكنها لا تقع ، ففي رواية « الحياة الهادئة » تنهار الامال المعقودة على نجاح المزرعة ففي رواية « قنطرة تواجه الباسيفيك » لا ينحسر المحيط وفي رواية « جياد تاركينيا الصفار » ، القائمون بالاجازة لم يروا ابدا الافريز ، ومختلفة مرة اخرى عن الروايات البوليسية ينتهي البحث الذي تقوم عليه الرواية الجديدة بالفشل ، فلا « جاك ريفيل » ولا « بيير ايليه » بطلا « ميشيل بيتور » ولا « جيل » بطل « جان لاجروليه » استطاع ان يوحد تجربته للعالم . فالاب في رواية « روبير بينجيه » لم يحصل ابدا على الرسالة التي كتبت لابنه تماما كما فشل مؤرخ « سارتر » في تأليف كتابه ، ونحن نترك في الظلام بالنسبة لمصير ابطال « روب جريبه » فلا ندري ما اذا كان القاتل في « المتلصص » لقي جزاءه وما اذا كان الموقف قل حل اخيرا في « الغيرة » ولا يحتوي الطرد الذي يحمله الجندي في رواية « في المتاهة » على اي شيء مهم .

ان روائيي الحوادث ينهون بطريقة تقليدية رواياتهم حينما تنتهي الحوادث ويتوقف روائيو الازمات النفسية حينما تنتهي الازمة . واستعار الروائيون الاجتماعيون نهايات رواياتهم من مؤلفي النوعين السابقين ولكن الكتاب الجدد الفرنسيين لتحاشي نوع الحل الذي تنطوي عليه العقدة على انه يجب ان يعتمدوا على حيل متعسفة تماما شأنهم في ذلك شأن الروائيين الانجليز لتيار الشعور من قبلهم . « المساحات » تقع احداثها خلال اربع وعشرين ساعة و « تمضية الوقت » تقع احداثها في عالم كامل . هذه الروايات وامثالها تنتهي عند لحظة الانتهاء وكان بامكانها ان تستمر الى غير نهاية ولكن دون محاولة لربط الخيوط معا او تقديم نهاية مألوفة . فاذا كان الزمن الخارجي ـ زمن الساعة يستخدم لاقامة حدود الرواية الجديدة فان الزمن الذاتي ـ امتداد الزمن هو الذي يعمل خلال الرواية ويشكل عاملا في بنائها الداخلي . ان العقل يطيل او يقصر الحادثة ويمزج الماضي بالحاضر بالمستقبل، وطالما ان هدف هذه الرواية هو تسجيل الوعي فان مجراها الداخلي يشبه مجرى العقل . وهذا يفسر لنا تكرار المشاهد في روايات مثل « المتلصص » و «الغيرة». المؤلف يعيد المشهد كلما تردد في وعي الراوي ، كما يفسر لنا سياق المشاهد في غير تتابعها الزمني الذي نلاحظه في كل مكان في الرواية الجديدة فبينما يسجل العقل ما تراه العين تلعب الذاكرة دورها وربما الخيال ايضا وكما يقول « كلود سيمون » : التجربة الكاملة يجب ان تحفظ .

ان نبذ التسلسل الزمني لصالح طرق الوعي له بالطبع سببه في الفلسفة . وموضوع الزمن لا يزال احد « سمات » علم الظواهر الاثيرة وقد جعل « هيدجر » الزمن كما يمارسه الفرد الفرع الاساسي للوجود وعنده

ان الحياة الانسانية تعاش قريبة جدا من الزمن لان الانسان وحده من بين سائر المخلوقات هو الذي يتوقع موته ويدرك التغييرات الدائمة التي تتعاوره جثمانيا وعقليا خلال مجرى وجوده ، وبنظر « سارتر » الى الرواية ـ وهي دائما امتداد زمني ـ كوسيلة لاظهار الانسان كمخلوق يستغرقه الزمن وتدركه الفلسفة كذلك ، ومعلنا ان الرواية الوحيدة الحقيقية هي امتداد زمني وضع الرواية مباشرة في خدمة الفلسفة وارسى الاساس للتقدم السردي الذي يفضله الروائيون الجدد .

وواضح جدا ان « بيتور » و « سيمون » فيلسوفان من فلاسفة الزمن ، وتترجم رواياتهما تماما ما يسمى بالانعكاس الفينومينولوجي اي محاولة اعادة بناء تجربة تحتفظ بها الذاكرة والوصول الى معناها بوصفها وصفا تاما بقدر الامكان ، ولكن « روب جرييه » بتكراره المناظر يتبع المبدا الفينومينولوجي الذي يقول بانه بتكرار الظاهرة يمكن للمرء ان يستحضر معناها . وغير هؤلاء من الروائيين الجدد بينما يظهرون بوضوح اقل انهم يقدمون دروسا فلسفية الا انهم يستهدون في سردهم بالزمن الذاتي اكثر منه بالتسلسل الزمني . وفي تعريفنا لترتيب ما لمشهد وحادثة يتجاهل التصنيفات المعقولة نميل الى تشبيهه بترتيب الاحلام ، ففي الاحلام يمكننا ان نرى بوضوح اكثر العمليات الذهنية تعمل دون محاباة ذهنية وتدخل وبسبب خاصتها الحلمية (نسبة للحلم) .

يمكننا ان ندعو الرواية الجديدة بالرواية السيريالية الافضل ، فانطباعنا بأننا نعيش في حلم أثناء قراءتنا يتكشف بوجهة النظر المتفق عليها وهي حيلة سردية يعتبرها الروائيون الجدد اساسية في فنهم ونحن نبقى محصورين في وعي الراوي ولا يسمح لنا ابدا بأن نناقش المؤلف او نبتعد لحظة واحدة لنتملي نظرة من الخارج للحالة فليس هناك من يقول لنا ما الذي حدث فعلا او ما الذي سيحدث. والبطل ليس متأكدا ابدا ما اذا كان كلام ما قد قيل فعلا وما اذا كان احساسه يكذب او تفسيره خاطئا . وكل ما يمكنه عمله من وجهة نظره المحددة هو ان يخمن ، فنرى جملة تغمرها الفاظ « كريما » و «محتمل» ليظهر للقارىء انه نفسه لا يعرف الحقيقة وبينما نقتفي اثار خطواته القلقة نشعر بأننا نفقد الارض الصلبة التي نقف عليها في الحقيقة واننا في الحلم او اننا ضحايا هلوسة . والعالم الذي يشيده البطل يضاء من خلال التجربة الشخصية او الكلام العادي يمكن ان يكون فقط تجريبيا . ونحن نخشى ان ينهار امام اعيننا شأنه شأن هذه العوالم الوهمية في الاسطورة اليابانية فمثلا « في المتاهة » « لروب جرييه » يظهر الجندي المريض الذي يعالج سكرات الموت كالكابوس . وهنا مرة اخرى نجد « سارتر » وفلسفته وراء التكنيك فهو يرى ان « الرواية الحقيقية لا مكان لها لملاحظ مميز » فطالما ان الحقيقة المطلقة لا يمكن معرفتها فان تقليد المؤلف العليم غير سليم من الوجهة الفلسفية .

ومهما كان الانطباع الذي تحدثه الرواية الجديدة للحلم او لتيار الذهن الخالص قويا ، فاننا نعلم اننا نتعامل مع فن لا مع كتابة آلية او نسخة طبق الاصل من التجربة النفسية . والرواية الجديدة لكي تشبه عمليات الوعي ولكي تحصل كذلك على الوحدة الجمالية استعارت كثيرا من الفنون الاخرى . فمثلا الموسيقيون قد يرون نوعا من الترتيب اللحني اي اضافة الالحان بعضها الى بعض في الطريقة التي تتجاور فيها الحوادث او المشاهد لتي تنتمي الى فترات من الزمن متباعدة تماما . انهم قد يرون المشاهد المكررة كثيمات متغايرة او دوافع . وفي تحليله الدقيق لرواية « الغيرة » « لروب جرييه » قال « ا لبروفيسور بوريس موريست » (اثناء « زمن » الرواية يلاحظ البطل ويعيش ويعاني ويتذكر احداث العقدة ويجعل منها من خلال خياله النشط « التجربة » التي هي الرواية ذاتها والنتيجة هي حرية عظيمة جدا (تعدد المناظر ـ تكرار الثيمات ـ تطوير الحوادث ـ تحويل العناصر الخارجية والاشياء الخ) تحمل في ثناياها مشابهة للبناء الموسيقي . ان التساوق الموسيقي لروايات « روب جرييه » الاخرى يمكن ان نخرج من دراسته بفائدة كبيرة وبالنسبة لكل الروايات الجديدة يوضع التحليل البنائي ـ في نطاق الموسيقى الامر للغاية) .

ومثل هذا القول يصدق كذلك على لوحات « كلود سيمون » التي يعرضها في تصميم موسيقي شائق للغاية و « كلود سيمون » نفسه يشير الى التصوير اكثر منه الى الموسيقى في شرحه لرواياته ولا يستغرب هذا منه اذا علمنا انه كان رساما قبل ان يصبح كاتبا وهو يميز شخصيات رواياته وثيماتها باستخدام احبار ملونة لكل منها كما يفعل الرسام . ويدعونا اهتمام « سيمون » بالتصوير الى الاعتقاد بأن هناك كتابا اخرين .. من بين الروائيين الجدد ينظرون الى اعمالهم باعتبارها من فن التصوير بكل متطلباته من ترتيب التصميم واللون وفقا لمبدأ تنظيم القماش . ومن هؤلاء الكتاب « بيكيت » الذي يستخدم اقلاما ملونة او ريشات ايضا و « بيتور » الذي يجعل اهتمامه بالفنون الجميلة نصه يقرأ احيانا ككتالوج متحف و « روب جرييه » الذي يبني روايته حول صورة « في المتاهة » وهناك استعارات لا شك فيها من السينما مثل (لقطة قريبة) (واختفاء) (ومونتاج) تصف جيدا تكنيكات التأليف في اي عمل من اعمال « روب جرييه » او « ميشيل بيتور » اعتبر اللقطات التي يفتتح بها « روب جرييه » رواياته : منظر المقهى في « المساحات » ودخول قارب المدينة في « المتلصص » العرض التدريجي

للمنظر والشخصيات في « الغيرة » واسلوب الرواية الاخيرة بجمله المسطحة المهتزة . ففي الزمن الحاضر يذكرنا بقوة السيناريو ، وباستخدام اللقطات واللقطات القريبة ، والتتبع اثناء تحرك الشخصية ، والاختفاء والقطع يكون « روب جرييه » مناظره كما لو كان حقيقة يستعين بالكاميرا . واذا عاد ذهن الشخصية الى مناظر في الماضي فانه يستعين « بالفلاش باك » ليقدم الشخصية لنا . والحيل الموحية بالمونتاج تستحضر معا عناصر السرد المختلفة كما في « المساحات » ورواية « ممر ميلانو » « لبيتور » أقيمت على نموذج مألوف جدا في السينما ، هو المشاهد المتزامنة . ان الاهتمام بالسينما وتكنيكاتها قوي جدا بين الروائيين الجدد الشبان ولا يدهشنا ان نراهم يتحولون كما فعل كل من « روب جرييه » و « مرجريت دبراس » لكتابة السيناريو . ولكن يجب ان نذكر انه بالرغم من ان الروائيين الجدد يستخدمون في رواياتهم حيلا بنائية مستلهمة من الافلام الا انهم يفعلون ذلك لان هذه الحيل تخدم اهدافهم الادبية ، فلا يجب ان يفهم ان التأليف الموسيقي او التأليف المشابه للسيناريو او اية استعارة من الفنون الاخرى هي هدف في ذاته فالروائيون الجدد لا يحاولون ان يحيلوا الرواية الى سينما او تصوير او مقطوعة موسيقية . فقط بعد ان رفضوا العقدة والحدث ، كان عليهم ان يلتمسوا في النماذج الشكلية الوسائل التي تعطي اعمالهم قوة دافعة ووحدة ، وقد وصف « روبرت همفري » النماذج الشكلية التي فرضتها كتابة تيار الشعور على النحو التالي :

١) الوحدات (الزمان والمكان والحدث) .
٢) الليتموتينات .
٣) نماذج ادبية سبق اقامتها .
٤) بناءات رمزية .
٥) ترتيبات منظرية شكلية .
٦) افكار دورية طبيعية (الفصول — المد والجزر الخ)
٧) افكار دورية نظرية (بناءات موسيقية — دورات التاريخ الخ) .

وقد اسس « بروفيسور همفري » بحثه على « جويس » و « ولف » واخرين ممن يكتبون بالانجليزية وان كان من الواضح ان الكتاب الفرنسيين الجدد انتفعوا بنفس النماذج . لاحظوا الوحدات بشدة ليمدوا اعمالهم بهندسة اساسية متينة . وقد لاحظنا وحدة الزمان ، وفي مثل صرامتها وحدة المكان — مدينة — جزيرة — شاطىء — مبنى — شرفة .

الا انه كما هي الحال مع وحدة الزمان فان وحدة المكان غير محصورة تماما بسبب العقل على ان يحرر نفسه من المكان الحاضر ومن اللحظة الحاضرة . ووحدة الشخصية يحتفظ بها ليس فقط بواسطة الشخصيات القليلة العدد نسبيا (وصل كل « مارجريت دبراس » و « بيكيت الى النهاية الصفرى) ولكن ايضا بالالتصاق الشديد بوجهة النظر الوحيدة وما يمكن اعتباره حدثا محصورا جداً — رحلة — اقامة — بعثة الخ .

الا ان الكتاب الفرنسيين الجدد يختلفون عن كتاب تيار الشعور الانجليز بأن لهم هدفا فلسفيا والنماذج التي استعاروها من هؤلاء الكتاب تستهدف اكثر من اعطاء اعمالهم مغزى جماليا او حتى تصوير عمليات النفس والمغامرة الانسانية على الارض . انهم باستخدامهم هذه النماذج ليعرضوا الحياة في الرواية يبتغون هدفا عزيزا عليهم — هدف القضاء على فكرة السياق الزمني وسائر دعائم الكون العاقل .

القاهرة **كمال رستم**

خيول الريح

لان منازل الاحباب يجهدها النشيج المر
لان مواسم الافراح لم تورق
لان الصمت لم ينطق
وقفت على جراح الخيمة السوداء
وفي عيني قد حطت قناديل الدماء السمر
وفي قلبي تموت البسمة العذراء
فتلسعني عيون القهر اهتف
عمري المقتول وجهك يا فلسطيني
ساركبها خيول الريح تحملني
وبين توهج الالام تنثرني
اشم رماد قلبي في جفونك يا فلسطيني
ارى كفني على عود ينادي ثوبك العريان
فتصلبني جذوع الراية الحمراء
واصرخ رغم اذلالي
وغصب الموت والنيران ، لن ارحل
ساشرب صمت من قتلوا
ساشرب وجه من غابوا
ومن خطوا على التربه
كتاب الثار والعوده !

حلب **عصام ترشحاني**

في مولد السلطان ابي العلاء، يختلط الحابل بالنابل. ان قطعة الخلاء التي تمتد خلف المسجد العتيق المطل على النيل ، تنقلب كل عام فجأة الى مهرجان ضخم حافل بالوان شتى من الصخب والضجيج. جماعات من الشبان تلهو وتتصارع، نساء يلتففن بالملاءات السود ينعمن النظر في حياء ودلال الى ما يرونه من اللعب والتهريج دون ان يشاركن فيه ، الصبية يتناثرون في كل مكان ويندسون بين الرجال والنساء ويتطلعون الى كل شيء يصادفهم .

بائع السبح لا يصمت ابدا ، يظل يردد نداءاته المكرورة :

ـ عندي سبحة بقرشين وبخمسة وبعشرة ...

الساحر الهندي يقف على ترابيزة خشبية ويعرض بعضا من العابه . انه ذو هيئة منسجمة تمام الانسجام مع مهنته ، فوجهه أسمر في لون البن المحروق ، وعلى الراس طاقية حمراء زاهية لفت حولها عمامة بيضاء ، ويرتدي جلبابا أزرق ويتأبط وسطه رباط اخضر . تقف بجانبه فتاة رشيقة يستخدمها وقتما تدعو الحاجة الى ذلك ، واحيانا لا يكون لها دور في العابه هذه ، وربما كان وقوفها من باب الدعاية والترويج .

تأمل وحيد الساحر وهو يعرض العابه . دقق النظر جيدا في حركات يديه الخفيفة ، وحاول ان يترصد له خطأ ما ، او يكشف الاعيبه ، لكنه لم يقدر ، الا انه لم يقتنع بأنه ساحر فعلا ، برغم ما رآه من العاب سحرية عجز عن كشفها .

تملى النظر في الفتاة الرشيقة الواقفة بجانبه . عجب لامرها ، فهي تبتسم دائما وتشير بيديها الى الساحر الهندي ، واحيانا الى باب المسرح الخشبي الصغير . البنطلون الاصفر والبلوزة البيضاء لا يكشفان مفاتنها . كان من الممكن ان تكون اكثر فتنة لو انها راعت اختيار ما يناسبها . وجهها المعروق ما تزال مسحة الجمال بادية عليه . تحاول الفتاة من وقت لآخر ان تمسح العرق بمنديل في يدها ، وكأن ذلك لعبة من اللعب المعروضة .

اصطدمت به امراة بدنية ترتدي ثوبا أسود . نظرت اليه في غضب، لكنه لم يعرها انتباهها ، واستحث الخطى على المسير . شق طريقه وسط الزحام . الفى مسرحا يمتاز عن باقي المسارح بأنه لا يقوم بدعاية ولا يحدث ضوضاء ، والعجيب ان الناس يتوافدون على المسرح . توقف هنيهة واخذ يقرأ اللافتة العريضة .. « المسرح الحديث .. غناء . رقص . منولوجات . استعراضات . تمثيليات » .



بقلم حسني سيد لبيب

وسرعان ما انجذب الى فتاة ممتلئة تبيع التذاكر ، ترتدي فستان سهرة عاري الاكتاف .. دونما انتباه من صاحبته التي تنهمك في بيع التذاكر . غمزه رجل بجانبه ..

ـ انها الراقصة .. بنت تعجبك.

ومصمص شفتيه عن رغبة واشتياق .

استثارته الراقصة ، وتذكر آمال خطيبته ، لا شك هناك فارق كبير . لقد جلس مع آمال ابنة عمه وهي بجلباب البيت .



لماذا يقارن بين الراقصة وابنة عمه ؟ .. نفر من هذه المقارنة ، وارجع ذلك الى فساد مزاجه ، واخذ يستحث خطاه .

دوى انفجار في أذنه ، انزعج ، التفت الى اليمين حيث مصدر الصوت ، ففوجىء بصوت أمرأة تحمل طفلا يزعق بشدة :

ـ فرقعت بالونة ابني ، الا تأخذ بالك ؟.

ـ انا ؟..

مصمصت المراة شفتيها ، بينا اخذ الطفل يبكي بصوت حاد ، لكنه اختلط بصخب الاصوات الاخرى ، وضاع فيها ..

ـ اشتري لابنك واحدة اخرى..

ـ لا اقبل العوض يا افندي ..

اشاحت وجهها عنه ، واخذت تهدىء من انفعال طفلها .

صوت مطرب يتناهى الى اذنيه من مسرح قريب ، صوته جهوري وكأنه يلقي نفثات ضيق ، علاوة على ذلك الحشرجة التي يبرزها مكبر الصوت بوضوح ، الا انه يحاول تنغيم صوته، وذلك امر يدعو الى العجب!.

استمع الى بضع كلمات فتضايق لسذاجتها ، وتمنى لو يستطيع انزاله من على خشبة المسرح ومنعه من الغناء .

تذكر الخطابات الثلاثة التي وصلته من آمال ، ولم يرد على واحد منها حتى الآن . لا يدري السبب.. ربما كانت نوبة الكسل والخمول هي السبب . حاول ذات مرة ان يكتب لها ، فكتب رسالة صغيرة ، لكنه نسيها في درج مكتبه ، وبعد أسبوع من تاريخ كتابتها اضطر الى تمزيقها ، لكنه لم يستطع ان يكتب رسالة غيرها . ومنذ ذلك الحين لم يكتب لها ، وهي في رسائلها الاخيرة تلومه وتعتب عليه عتابها الرقيق ، لكنه يحس في قرارة نفسه أنها بعيدة عنه ، فهي لا تعرف شيئا عن ظروف معيشته في غرفة صغيرة لا تدخلها الشمس أبدا ، اما الهواء

فلا يزور غرفته الا اذا رق صاحب الشقة المجاورة وفتح باب شقته قليلا ولو مواربا .

– عندي سبحة بقرشين وبخمسة وبعشرة ...

– كشري ...

– البالونة بقرش .. الزمارة بقرش ..

– قرب وشوف العاب الساحر الهندي الكبير .. قرب وشوف ..

اختلطت الاصوات ببعضها ، والزحام يشتد . احس بصداع هائل . ثلاث سنوات وهو يعاني من وحدته ، والصداع يلازمه . ثلاث سنوات مريرة قضاها في القاهرة وحده لا يعرف غير غرفته الضيقة ، وادارة المعاشات التي يعمل فيها ، واصدقاء معدودين يملأون راسه بحكايات لا تنتهي عن مغامراتهم العاطفية . كان ينصت لما يقولون ويكتفي بالانصات ، ولم يشأ احد اصدقائه ان يدعوه الى ليلة من تلك الليالي التي يحكون له عنها .

تراقصت الاضواء في عينيه . كل شيء حوله مضيء ، ولا فكاك من الضوء .. لا يستطيع الهروب . أين يجد مكانا معتما يركن اليه بعض الوقت ؟. الصداع في راسه يؤلمه ويسبب له نوعا من الضيق ، وعيناه اتعبتهما الاضواء .

اين يهرب من الضوء ؟.

ايرجع الى البيت ؟.. اذن فقد خاب سعيه ، وضاعت السهرة الرائعة التي كان يمني نفسه بها . نظر الى ساعته فوجدها العاشرة ، لا بد ان يسهر ، أن يواصل السهر . ولكن يجب ان يفعل شيئا ، شيئا ذا بال .. والى الآن لم يجد هذا الشيء الذي يجتذبه ، لعل تواجده وسط هذا الزحام شيء مريح ، حيث ينتشله من صحراء الوحدة التي اضنته وافنت ايام عمره .

انجذب الى صوت رجل ضخم الجثة ، يثرثر بسرعة بأنفاس متلاحقة ، يلوح بذراعه اليمنى ، اما اليسرى فيريحها على كتف فتاة شقراء لا تنبس بكلمة او يفتر ثغرها عن ابتسامة ما ، وانما تنتصب امام المتفرجين كتمثال من الشمع بلباس البحر الذي يكشف عن جسد ممشوق ، انصت الى ما يقوله الرجل الضخم الجثة :

– هنا تحدث المعجزة كل ليلة .. هذه الفتاة ، ترقد في صندوق خشبي ، تتمدد داخله ، امامك .. ثم ينشر هذا الرجل الصندوق بالمنشار عند وسط جسمها ، ينقسم الصندوق الى نصفين ، يصير جسم الجميلة نصفين.. راسها في ناحية، ورجلاها في ناحية .. لكن المعجزة تحدث امام عينيك ، فالساحر العجيب سيعيد النصفين كما كانا ، وترجع الفتاة سليمة .. قرب وشوف المعجزة .. المعجزة التي تحدث كل ليلة .. هذه الفتاة ، ترقد في صندوق ...

واخذ يكرر ما قاله ، بينا وحيد منصت اليه ، يراقب حركات يده اليمنى التي لا تستقر على وضع ما .. فحينا يشير باصبعه الى الفتاة الشقراء ، وحينا يشير الى شباك التذاكر ، وحينا آخر يشير الى المتفرجين .. وأيضا يضع يده اليمنى على كتف الفتاة فتحتويها ذراعاه ، وكانما يؤكد للمتفرجين حقا أنها سترجع كما كانت بفضل المعجزة التي تحدث في مسرحه كل ليلة كما يقول .

تمنى لو يهرب، ولكن الى اين ؟.. الناس يحاصرونه بأجسادهم وبعيونهم ، لكنهم بعيدون عنه . ما يزال يشعر بأنه في سجن كبير . انه أسير تلك النفس الحائرة القلقة، وآمال تعيش في «المنصورة» وسط أسرته واسرة عمه ، في بيت واحد ، وهو هنا في القاهرة يتلظى بنار الغربة والوحدة . حتى جيرانه يقاطعونه ويخشونه لانه أعزب .. واصدقاؤه يلتقون به لقاءات عابرة ، ويحكون له مغامراتهم التي تحدث بعيدا عنه ، حتى بات غير مصدق لما يقولون ، فهو لم يوفق ذات مرة الى مثل هذه المغامرات .

كان يمني نفسه بالزواج القريب، لكن العقبات تناوئه، فما يزال يبحث عن شقة خالية حتى اعياه الجهد وخاب سعيه . كما ان عمه لم ينته بعد من اعداد أثاث بيت الزوجية .

دخل صوانا يخلو من الزحام . هرب من الزحام الخانق الى داخل الصوان حيث اصطفت كراسي قليلة . اقتعد كرسيا وطلب قدحا من الشاي . اشعل سيجارة وحاول ان يجد في عزلته هذه راحة مما يعانيه من ضيق . بجانبه رجل يتجلبب بجلباب ناصع البياض . حاول الرجل أن يتبادل معه اطراف الحديث ، لكن وحيدا اجابه بكلمات متقطعة وكانها تعبير عن تمزق داخلي ثم عاد ثانية الى وحدته ينفث الدخان ويراقب افراد الفرقة الموسيقية التي بدات تمرن آلاتها على العزف . نهضت امراة زنجية وبدأت تمرن جسمها الممتلىء على الرقص. كانت ترتدي فستانا ضيقا. حينما تحاول ان تثني قدميها ، تبدو ركبتاها المكتنزتان .. نفر وحيد من منظرهما . بدتا امامه كشيء كريه ، لا سيما ان العزف بدأ يأخذ نمطا اكثر حدة ، واصبح شبيها بقرقعة الاواني النحاسية . بدا يتململ في جلسته . بعدما انتهت الرقصة ، اقبلت الزنجية ناحيته مبتسمة . ناولها شلنا ، ثم أعطى الجرسون حسابه وخرج الى حيث الضوء والضوضاء .. الضوء يؤلم عينيه ، والضوضاء تجلب له الصداع ، واذا ما رجع الى غرفته فسيكون هذا تأكيدا لفشله في قضاء السهرة كما ينبغي . كما انه كره الوحدة ، وكره الغرفة .

مرة اخرى يصادفه ذلك المسرح الهادىء . تذكر الفتاة الجذابة الجالسة في شباك التذاكر . اندفع نحو المسرح واشترى تذكرة ، كان

يرمق الفتاة بعينيه الظامئتين . رنت في أذنيه العبارة التي سمعها من رجل :

ـ انها الراقصة .. بنت تعجبك.

فوجيء بالزحام داخل المسرح . جموع غفيرة من اناس ذوي انماط مختلفة ، فمنهم من يرتدي الجلباب، ومنهم من يرتدي الملابس الافرنجية. كما أن العنصر النسائي لفت انتباهه ، فمنهن من يلتففن بالملاءات السود ، ومنهن من يلبسن فساتين سهرة متواضعة . وثمة جمهور آخر يملأ الصفوف الخلفية ، انهم الاطفال ، صفير حاد انطلق من كل مكان ، حتى خيل اليه ان الصالة كلها تصفر . لم يبدأ البرنامج بعد . بعض الناس يتسلون بالحديث ، اما هو فقد آثر كعادته ان يكون وحيدا مع سيجارته ينفث دخانها ، وحين تضايق ، سأل جاره الشاب عن البرنامج ونجومه ، فأجابه الشاب بكلام كثير فهم منه وحيد ان الشاب من رواد المسرح الدائمين ، وبعد ان انهى الشاب حديثه ، توارى وحيد خلف غلالة الصمت ولم يحاول ان يواصل الحديث . وعاد من جديد ينتزع هذا المنظر الصاخب من خياله وينتقل به الى « المنصورة » حيث اسرته وابنة عمه . اذا كانت ابنة عمه معه هنا ، فستكون الليلة اجمل واروع ، وسيشعر بالراحة حتى لو قضيا الليلة في الغرفة ساهرين . ان وجهها بريء ، وابتسامتها مشرقة .. ويكفيه ان يحس بالبراءة ويتمتع بالاشراق ليكون مرتاحا منبسطا .

بدات الموسيقى الصاخبة تتعب اذنيه . الناس تتجاوب مع انغامها. بعضهم يصفق . تذكر الراقصة الجميلة ، انها شيء مثير حقا ، شيء لا يجده في آمال.. سأل جاره الشاب :

ـ ما النمرة التالية ؟.

ـ الرقص .. الراقصة سوسو ، بنت تجنن ..

تشوق للراقصة المثيرة . انها حتما شيء جديد سيجعل الليلة اكثر متعة وجمالا . انتهت الموسيقى الصاخبة ، وبدات همهمات جمهور المشاهدين ، والجرسون في حركته الدائبة يلبي طلباتهم ، منتهزا فرصة الاستراحة القصيرة قبلما ينشغل الناس عنه .

اخيرا ، أعلن مذيع الحفل :

ـ والآن مع الرقص الشرقي ، مع الراقصة سوسن فتحي ..

تعالى الصفير والصياح . وما ان ظهرت سوسو حتى زاد الصفير وزاد الصياح . وفوجيء وحيد بالجالسين يحيون الراقصة بالصفير والصياح، ومنهم من يحييها بطريقته الخاصة فيلقي عليها طاقيته او عمامته .

بدات سوسو الرقص . كانت تتراقص مع انغام الموسيقى التي بدات هادئة ثم تصاعدت حدتها شيئا فشيئا . لكنها سرعان ما خرجت عن رقصها واخذت تؤدي حركات اثارة جعلت الصالة كلها تصيح وتهتاج كحيوانات جائعة ، فاحس وحيد بانه شاذ وسط هذا المجتمع الغريب . أحس باختناق ، وخيل اليه ان صوته محبوس ، ولن يقدر على الكلام . نهض عن كرسيه وغادر القاعة في خطى متحفزة نحو با بالمسرح ، وتجنب الالتفات وراءه ظنا منه ان العيون كلها تنظر اليه في تساؤل وتعجب . وفي الحقيقة، لم يحس احد بخروجه ، جاره الشاب لم يحس ايضا بخروجه .

رفع راسه نحو اللافتة العريضة وعاد يقرأ من جديد « المسرح الحديث . غناء . رقص . منولوجات . استعراضات . تمثيليات » . فسخر من نفسه . الم يكن واحدا من هؤلاء الفيلان الذين دخلوا من اجل سوسو ، الراقصة المثيرة ؟. الم يكن واحدا منهم ؟. لقد اندفع في حمق نحو شباك التذاكر وليس في ذاكرته شيء عن البرنامج سوى جسد سوسو المتع ، هذا الجسد القابع في شباك التذاكر يجتذب الناس كمغنطيس نحو المسرح .. أليس واحدا منهم ؟. لماذا اذن يهرب منهم ويتنكر لهم ؟.

أسئلة طنت في رأسه ، لكنه لم يعبأ بها ، واستحث خطاه يخترق الزحام الذي بدأ يخف نوعا ، فالليل يقارب من الانتصاف . ابتعد قليلا عن المولد ، وتنسم نسيم الليل البارد واحس بانه يستنشق الهواء النقي . اندفع نحو البيت وفي خاطره تموج صورة آمال بدافع قوي لرؤيتها . انها الشيء الجميل الذي يعلق مستقبل حياته عليه ، وهو الذي يمنيه بان أيامه المقبلة ستكون اكثر اشراقا عن تلك التي يعيشها .

ود لو يستقل قطارا على الفور الى « المنصورة » ، ويلتقي بها ، لكن ادارة المعاشات تنتظر قدومه في الثامنة صباحا ، دون تأخير . وفي مكتبه ينتظره مقعد رابع بارد ، لكن لا بد من أن يحضر ويجلس عليه، خوفا من التفتيش المفاجيء علاوة على امضائه التي يمهر بها الشريط الزمني عند البوابة الخارجية . وضحك عندما تذكر الاعيب زميل له حيث يضع جاكتته على مسند الكرسي ، ويخرج بعد ان يستأذن منه ممهرا امضاءه على الشريط الزمني. ضحك لهذه اللعبة الطريفة، لكنه لم يشأ ان يلعبها لانه لا يدري كيف يستغل الوقت الذي يهرب فيه من العمل الحكومي ، انه حقيقة يشعر بالفراغ فكيف يزيد العبء النفسي ؟.

انه يعيش وحيدا بلا زوجة وبلا اولاد . ان مسؤولياته محدودة ، لا تتعدى مواعيد سطحية للقاء بعض الزملاء والاصحاب ، وتدبر أمر وجبات الطعام ، وارسال جزء من راتبه كل شهر الى أسرته ، والسؤال عن آمال .. وهنا تذكر تقصيره في

لبنان

يا من يلوم على حب نما بدمي ... اكرم بلبنان محبوبا فلا تلم
أقمت في مهجتي شعبا شمائله ... أنقى من الطهر شعب للعطاء نمي
حييت باسم الوفا من كان فتيته ... ينجو الغريق بهم من لجة الندم
حييت لبنان حصن الضاد من قدم ... حييت من عاش للاخلاق والشمم
فتيانك الهمة العلياء تعرفهم ... في كل معترك للحسن محتدم
نهضت في مشرق حر به نهضت ... ابناؤه منك اعلاما على علم
ما زلت للعرب نورا انت ناشره ... على السفوح على الوديان والقمم
واليوم «للبرح» من دنيا العلى همم ... جادت لتكبر فيه عالي الهمم
صرح مآثره للعين ظاهرة ... شمس عن الشمس فلت حالك الظلم

ماذا أقول وانا للعطاء هنا ... نجود بالنفس عن حب وعن كرم
انترك الساحل المعطاء منعزلا ... عن الحضارة عن دنيا من النعم
هذي حدائقنا الغناء ما برحت ... يسلسل الطير فيها اعذب النغم
كأن فيها من الاوراق عهد هوى ... للظل للطل للاطيار للنسم
تجلببت برداء من مفاتنها ... ما البستها الليالي حلة الهرم

عذرت نفسا على لبنان حائمة ... واي نفس على لبنان لم تحم
لم ينقسم شعب لبنان كما زعموا ... فشعب لبنان شعب غير منقسم

ابراهيم حرب

الرد على رسائلها ، وعتابها الرقيق ، فأحس بتناقض في سلوكه .. كيف يضيع وقته في مسرح صاحب ثم يدعي بينه وبين نفسه أن الفرصة لا تواتيه للكتابة اليها ؟. أي شيطان أهوج يملي عليه هذه التصرفات ؟. انه ملتزم أمام آمال كخطيب ، ولا بد ان يفي بالالتزام ، لا بد أن يكتب اليها ، فانها ولا شك تعذبها الوساوس ويقلقها هذا الانتظار الطويل . لا بد ان يكتب اليها هذا المساء .. سيقول لها أشياء كثيرة .. سيكتب لها عن واقع الحياة التي يعيشها ، ولن يخفي شيئا . يجب ان تعرف عنه كل شيء ، ويجب ان تعايشه فيما يعانيه في القاهرة.

جلس الى مكتبه وتناول ورقة ثم بدأ يكتب :

« عزيزتي آمال ... » .

ثم توقف برهة حاول خلالها ان يسلسل الموضوعات التي سيكتب عنها ، ويفكر في الطريقة المثلى التي يصوغ بها احاسيسه . لكنه تثاءب ، وجمد القلم بين أصابعه . عجز عن ان يخط كلمة واحدة . نظر الى ساعته فوجدها الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . لم يبق من الليل سوى ست ساعات فقط . حان موعد النوم ، لكن لا بأس من أن يختلس ساعة واحدة من وقت نومه ، ويكتب الرسالة . عاد من جديد يفكر ، ثم كتب :

« **احييك تحية رقيقة** كأنسام الربيع ، وابعث اليك بأشواقي القلبية ، واني يا آمال ... » .

ثم توقف القلم ثانية . لماذا يجمد القلم ؟.. لا يجب عليه أن يبدأ بهذه الطريقة الحالمة . انها شيء لا يعبر تماما عن واقعه هنا في القاهرة . لماذا يكتب عن أنسام الربيع ونحن في برد الشتاء القارس ؟. لا .. يجب ان تكون الرسالة اقرب الى الواقع . مزق الورقة ، وعاد يكتب من جديد :

« عزيزتي آمال ... » .

وجمد القلم مرة أخرى بين أصابعه . حاول أن يكتب ، لكنه تثاءب وأحس بالتعب . نظر الى ساعته فوجدها الساعة الواحدة والنصف ، فأطفأ النور ونام ...

القاهرة **حسني سيد لبيب**



يـــا مـــال الشـــام

تاليف سهـام ترجمـان – ٣٣٥ صفحة – حجم كبير – مطبعة التوجيه المعنوي في وزارة الدفاع بدمشق ١٩٦٩

كانت دمشق ولا تزال موضوعـا فكريـا للباحثيـن والكتـاب مترامي الاطراف والابعاد ، خصب الدراسة والتراث ، متصل الهوى بقلوب اهلها وعارفيها ، وكان ابن عساكر في القديم يعد كل من سكن دمشق او مر بها ولو ليلة واحدة من ذويها فالزم هذا المؤرخ الكبير نفسه بان يذكر المقيمين والنازحين في كتابه الضخم المتعدد الاجزاء « تاريخ ابن عسـاكر » .

وفي ادبنا الحديث كتب الشعـراء والكتاب عـن دمشق اروع القصائد والصفحات عن موطنهم الذي يرويه بردي وتضمخه بالزهر والعطر نسمات الغوطة الخضراء وقد رف عليها جنان قاسيون وهو ممتد السفوح من الصالحية حتى المهاجرين، وكانت قصيدة شوقي ابلغ ما كتب في وصف دمشق وابقاها على السنة الكبار والصغار في المجالس والمدارس وفي السوانح والذكريات .

فمن اشهر الذين خلدوا صور دمشق في آثارهم كان علامة الشام محمد كرد علي وشاعراها الكبيران خليل مردم بك وشفيق جبري واديبها الوفي الموهوب صلاح الدين المنجد .

ولم تكن المرأة الدمشقية واعية ومثقفة بنافلة في وطنها من محاسن ومزايا ومن خصائص وشيم ، تمثلت في سجايا السكان والمواطنين ممن انبتتهم دمشق وطبعتهم بطوابعها ، ولم يفتني شرف التعبير عن ودادي لهذه المدينة في قصصي ومؤلفاتي حتى رأيت صديقنا الكاتب الكبير الدكتور كاظم الداغستاني منطلقا من صمته والعكوف على كتبه واوراقه الى المطبعة التي اخرجت للقارىء كتابه القيم « عاشها كلها » وقـد احتوى هذا الكتاب (١) روائع الصور الدمشقية في حياة اهلها الذين عرفهم المؤلف الاديب وعاش بينهم طفلا ورجلا ، طالبا وكاتبا ، فجاء بما تفقدناه في محصولنا الفكري الحديث وردنا الى ادب حي رفيع صادق التعبير والشعور ، وما كدت اطوي الصفحات الاخيرة من هذا الكتـاب الشائق حتى وجدت بين يـدي كتـاب الانسة المثقفة سهام ترجمـان « يا مال الشام » فقتحت الصفحات الاولى عن ادب ومعرفة وصفحـات الكتاب كلها فياضة بمحبة دمشق والاعجاب باصالتها وخلود مجـدها ، فمضيت في القراءة والتأمل وخيالي يتعمق في تمثل الصور الدمشقية التي نقلتها المؤلفة الاديبة بقلمها الصافي وطبعها الذي تابى على التكلف فكان في تصويرها لحياة دمشق وتقاليدها فن الموهوبة الدمشقية التي اوتيت الكثير من سحر وطنها وبيانها .

كيف استطاعت الانسة سهام ترجمان المتمرسة بالعمل الصحافي في صمت ودأب ان تجمع في كتابها « يا مال الشام » هذه الصور الصادقة المتلاحقة التي لا يقدر على جمعها وتنسيقها الا المتفرغون للدراسـة والتتبع في البحث العلمي والمنهجي ؟ لقـد اثبتت قدرة الموهبة والمحبة في اعداد مؤلفها بلباقة ودقة جمعت فيهما كل ما يتوق اليـه القارىء العربي والاجنبي من الاطلاع والوقوف على حياة دمشق في عاداتها وتقاليدها ، في روعـة نضالهـا وطموحهـا وامثالهـا ، فاحسنـت المؤلفـة فـي تخليـد هـذه الصور التـي ازدحمـت تلقـاءها ضجـة التجديد منـذ تجاذبـت اهلهـا تيارات مـن الشـرق والغرب .

ما اروع الوصف والتصوير لهذه الحوادث والملامح التي ملأت سهام ترجمان صفحاتها ، فدل صنعها هذا على ذاكرة حية قوية ودأب طويل في اختزان الحقائق والصور الخافقة باللحم والدم العالقة بالمنابـت والارض على ترادف الايام والاحداث .

واذا تتبعنا الهام الاسماء وما اختص الله به اصحابها منذ ولـدوا وجدنا سهاما ترجمان الشام في هذا الكتاب الممتع النافع ، وما كانت سهام قلمها سلاحا ، وانما كانت نفحات ورياحين من حب الوطـن والتعلق باصالته وحقيقته ، وفن التعبير عن الصور والذكريات لا يؤتاه اي كاتب مهما يتكلف السرد والاسلوب ، لان صاحبه مطبوع ملهم يرفده المراس وصدق البيان ، فالشام بآفاقهـا واسواقها بتعاطف بيوتها وطموحها وتلاقي تاريخها وتراثها وتجاوب اهلها في الآمال والآلام ، تموج في هذا الكتاب وتتدفق بالكلمة والنغمة في ادب دمشقية بعيدة عـن الادعاء والضوضاء .

على اني وقد استمتعت بكتاب سهام ترجمان فاني لا اخليـه من مآخذ في الصفحات التي استغرقت في التعبير باللهجة العامية المحببة التي ينهمها ويتذوقها اهل الشام ، لكن القارىء غيرهم قد تفوته المعاني ولا يدرك ما بين الفاظها فما يشفيه الا فصيح الكلام .

وحسب المؤلفة فضلا وادبا هذا الصدق في شعورها وتصويرهـا ونحن نتفقده في اكثر آثارنا الحديثة ، وقد زينت كتابها بالواح فنيـة ملونة لكبار المصورين والرسامين السوريين في مشاهد شامية اصلية اضفت على بيانها روعة وجمالا .

(١) سأقدم « للاديب » دراسة خاصة بهذا الكتاب

دمشق — وداد سكاكيني

•

الجـاحـظ

مسرحية في خمســة فصـول – تاليف الدكتور احمد مكـي – ١٠٦ صفحات – بمنشورات دار النعمان بيروت سنة ١٩٦٩ .

لقد مرت بحياة ابي عثمان عمرو بن بحرين محبوب الجاحظ حوادث هزته هزا عنيفا وملأت نفسه بذكراها ، فان صناعة القلم الاعلى التي كـان يتقنها بيبانه وعقله وعلمه لم تكن هينة الخطب عليه ، أفمذاكر يـوم جيء به مصفودا بالاغلال يثقل ساقيه الحديد . ولما وسطوه فـي بهرة المجلس الذي كان في صدره عدو الجاحظ قاضي القضاة « احمد بن ابي دؤاد » ولم يكن قد جاء به لمحاكمته ، وانما لاطلاق سراحه والمن عليه بالحرية ، فجيء بحداد ليكسر قيد الحديد عنه فغمزه القاضي ليعذبه قليلا قبل ان يفك اصفاده ، فآلمه الواقع على ساقه فملا بيده ، وصفع

بها الحداد وقال له :

ـ اعمل عمل سنة بشهر وعمل شهر بيوم وعمل يوم بساعة ، ليست ساقي خشبة ، ولا « ساجة » .

فضحك القاضي واهل المجلس ضحكا مغربا ، ونهض الجاحظ من قيوده الى الحمام ثم خرج منه بالخلع التي البسه اياها ابن ابي دؤاد واستقبله بترحاب كبير واجلسه الى جانبه ، وقال له :

ـ هات من حديثك يا ابا عثمان .

ان اول صورة في عصرنا ظهرت للجاحظ بفن التصوير هي التي اثبتها الاستاذ حسن السندوبي في كتابه عن الجاحظ ، وكان كتابه من اوائل ما الف في عصرنا هذا ، ومن سوابقه ، لقد ابرزه المصور جاحظ العينين بدينا قصيرا ، فرحت اسائل نفسي :

ـ ليت شعري ، كيف سيكون شكل «ابي عثمان» على المسرح حين تقوم جوقة فنية قادرة على فن التمثيل فتظهر ابا عثمان الجاحظ رائحا وغاديا وجالسا ومسترقا للنظر والسمع ، ضاحيا امام النظارة في القرن العشرين ، كما ابرزه الدكتور « مكي » ولو ان محدثا سخى الخيال دلف الى الجاحظ في حياته وقال له :

ـ يا ابا عثمان هل سيأتي يوم يقف بك الرواة واهل الفن والابداعيون فيحلوك بالتمثيل في شخص تقمصك ويلبس في الفن والحياة لبوسك ؟ .. لاجاب :

ـ ايكون هذا التمثيل كالذي ذكره سوفوكل الرومي ؟

ومن يدري سير الارواح فان « رجعة ابي العلاء » التي ألفها الكاتب العظيم عباس محمود العقاد كنت قد قلت له فيها :

ـ ترى لو عاد حقا ابو العلاء فهل يكون شعوره هو ذاك الذي صورته بحسك وبيانك .

فكان العقاد يعجب لقولتي ، ويشد عجبه صديقه وملازمه الرواية « كامل الكيلاني » وكان اذا مشى الى جانبه اخذت بيني وبين نفسي اقول :

ـ ساتشو ودون كيشوت .

لقد اقتدر الكاتب الروائي الكبير صديقنا عميد الادب الدكتور احمد مكي على احياء الزمن الفائت ورد الشخوص القابرة الى دنيا الحاضر وهو منذ ثلاثين عاما حين لف حوارية « ليلة القدر » (1) بدا في اهاب مؤلف مسرحي منقطع النظير .

ليس من شاني توفير القراءة على القارىء بالتلخيص والتحليل المسهب للاثار التي اكتب عنها، فانني اجد في ذلك حيفا لا أجيز الحاقه بها فكانت شريعتي العرض الوجيز واختيار بقعة في الاثر اتبحبح فيها بالكلام عليها . اصب ادب الدكتور المكي بانه لا يكون الا جديدا وفي عجب من الطرافة عجاب ، فهو يتأتى في موارد آثاره ليحط بها على القمة . ومسرحية «الجاحظ »تبدأ في بيت من بيوتُ البصرة يدور فيه الحوار بين عمرو وامه حول انغماسه في الدرس والبحث ، فهي لا ترى جدوى فيما يضع من كتابة وما يسلخ به وقته من درس ، حتى لتكاد تخرجه عن سكونه الى ثورة ، وهي التي قال لها يوما :

ـ يا ام ، انني جائع .

فأتته بطبق عليه الكتب والكراريس ، وقالت له متهكمة :

ـ كل هذا .

وقد استطاع المؤلف المسرحي بهذا المشهد الاول ان يدلف الى قرائه بصورة تمثل انكباب الجاحظ على العلم والمعرفة ، بعد ان كان من قبل يبيع الخبز والسمك على ضفاف نهر .

ثم ينقل المؤلف المشهد الى المسجد الجامع بالبصرة وكانت المساجد الجامعة في تلك العهود كالمدارس في زماننا بل كالجامعات ،

(1) كتب الدكتور المحاسني عن هذه الحوارية الرائعة مقالا تحليليا ضافيا في زميلتنا مجلة « الرحمة » منذ اربعة اعوام (الاديب).

الاديب

لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر
يناير ، كانون الثاني
تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية
للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

●

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي
٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي
في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي
٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى
في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد
الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ — المنزل ٢٢٥١٣٩
Tel : Dir : 223819 — Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :
مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨
بيروت ـ لبنان

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول
البير اديب

يتدارس في صحونها وافنيتها الطلاب دروس اساتذتهم في الادب والفقه والاحبار .

ثم يتدرج المؤلف في المشاهد فيدلف بالقاريء الى منزل احد السراة وهو مويس بن عمران ، حيث يدور الحوار فيه بين ائمة الفكر والادب بعصر الجاحظ ، من ابي اسحق بن سيار النظام استاذه الى مؤدبيه وفيهم الاصمعي وابو عبيده معمر بن المثنى ويدور التحاور هنا اديبا حول اللغة والبيان وبعض النوادر والاخبار وفي النقد والتحليل .

وتترادف المشاهد حتى تضم الجاحظ الى صديقه الاوفى محمد بن عبد الملك الزيات الذي نكبه قاضي القضاة وشواه في التنور الذي كان يشوي فيه المصادرين . وتتعاقب المشاهد في وجود ابن الزيات وقاضي القضاة ابن ابي دؤاد . وفي اواخر المشاهد يدخل المؤلف افكارا اعتزالية ويفاجيء قراءه بالعنصر النسائي في شص المفكرة الفيلسوفة «مجرانة» التي تأخذ بالحوار في مذاهب المعتزلة في الفكر والكلام وفي كل ذلك يكون الجاحظ حاضرا ومحاورا ومناظرا ، ثم يتيح المؤلف لقرائه ان يشاهدوا شخصية المبرد عالم الاخبار وناقد الاشعار وصاحب كتاب « الكامل » .

ويسدل المؤلف النابغ الستار على هذه المسرحية في مشهد مختصر كان الخاتمة لحياة ابي عثمان وهو سقوط مكتبته الثقيلة عليه وموته تحتها .

كذلك دارت خمس فصول في هذه المسرحية قراءة لا تمثيلا ، وكنت كاني اشاهدها على المسرح ، فاتخيل شخوصها فيه ، وكم اتمنى ان اشاهدها عيانا ممثلة يقوم بتمثيل ادوارها ممثلون ادباء وموهوبون يبرز بينهم ابو عثمان في شخص يتقمصه ، ويكون مثله جاحظ العينين قصيرا بدينا بعض البدانة .

لقد كتب مقدمة هذه المسرحية الصديق عميد التربية الاستاذ الدكتور جبور عبد النور فوفاها حقها من الاعتبار والاكبار والتحليل الادبي المكين ، وجعل استهلالة كلامه دهشته في ان يرى الجاحظ مجسما مكثفا ضاحيا ، بعد ان كان خيالا في ضباب الذهن اوهام الذاكرة . وقد ابان ان اللغة التي اجرى بها المؤلف مسرحيته لغة جامعة بين الجاحظية والتعبير المشابه لها . وكنت اوثر لولا اعنات التاليف ان تجيء عبارات الجاحظ بذواتها وترادفها وتتابعها الفني المأثور عنه ، لكن الصديق المؤلف الموفق لم يرد ـ كما احسب ـ ان يخلع على المسرحية مدرسية جافة ، وانما آثر التطوير للتعبير الجاحظي كما كنت اتمنى ان اجد مشهدا فيها (للبخلاء) عند الجاحظ ، اذ كان يحب النوادر والطرف الشعبية .

اما الحوار الذي برع في ايراده وترداده الدكتور مكي ، فاني كتبت في ضحى صدور « اهل الكهف » ما ادفع به عن الادب العربي معرة التقصير في فن الحوار ، فان استاذي ثم صديقي الدكتور طه حسين ـ مد الله بعمره بالصحة ـ كتب مقدمة « اهل الكهف » للقاص الكبير توفيق الحكيم ، وزعم انه اول من ادخل فن الحوار في ادب العرب فرحت اقيم لاستاذي البرهان على ان الحوار موجود في القرآن لا يخلو في سورة من سوره من فن الحوار ، ثم ان الجاحظ كان امام الكتاب المتحاورين وكتبه ملأى بفن الحوار ، ثم كان الشاعر الكاتب الفذ ولي الدين يكن اكتب اهل العصر حوارا واسدهم توفيقا فيه واليوم نقرأ هذه المسرحية الجديدة كل الجدة ، الموفقة في حوارها كل التوفيق ، ونعلل العيون بمشاهدتها ممثلة ، ونقول ان صديقنا الكاتب الكبير الدكتور احمد مكي عميد الادب اعطى العروبة مسرحية « الجاحظ » في ابان الحفاوة بذكراه في لبنان ومصر والشام وسائر الديار العربية ، فيالله هذا الكاتب العربي الاعظم الخالد على ترادف العصور .

دمشق — زكي المحاسني

مفكرون وادبـــاء

تاليف انور الجندي ـ ٢٩٣ صفحة ـ دار الارشاد ، بيروت

الاستاذ انور الجندي من العاملين النشيطين في مجال تاريخ الفكر المعاصر ، وتشهد مؤلفاته الكثيرة بالجهد الكبير الذي يبذله ، وتحدد الصفة الموسوعية للكاتب ، خاصة ما اسماه ـ او سماه اذا شئت ـ « موسوعة معالم الادب العربي المعاصر » وقد صدر منها نحو من عشرين مجلدا ، وترجمته لعدد من اعلام الفكر المعاصر في كتب مفردة ككتابه عن « شيخ العروبة » و « فريد وجدي » و « زكي مبارك » عطر ذكرهم، وبعد ذلك مقالاته في الصحف والمجلات العربية المختلفة .

والاستاذ الجندي رجل لا يفتر عن التأليف ، ويجب ان نضع هذه الحقيقة نصب اعيننا حينما نقف على حوار او نقص او نعثر على رأي له في كتاب ينقض رأيا له في كتاب آخر ، وقديما عيب ابن الجوزي بكثرة اخطائه وتناقضه فقال : « انا مرتب ولست بمصنف » (١) ، واخال الاستاذ الجندي معتذرا بعذر ابي الفرج طيب الله ثراه .

والاستاذ الجندي في تاريخه الفكر المعاصر يبحث في تيهاء لم تطرق ، ومفازة لا صوى فيها ، لو سلكها عنبري لضل ! كصحراء ابي الطيب :

يتلون الخريت من خوف التوى　　　فيها ، كما تتلون الحرباء

ذلك ان فكرنا المعاصر لم يخدم كما خدم الفكر القديم ـ على قلة ما خدم به (٢) ـ فالباحث فيه لا بد ان يتصفح مجموعات هائلة من الصحف والمجلات والدوريات والوثائق والكتب المطبوعة والمخطوطة ، الى جانب اتصالاته بمعادن مختلفة من الناس ، و « الناس معادن » كما في الحديث (٣) ، ففيهم معادن ذهب وفضة وفيهم ـ حماك الله ـ معادن زفت وقطران ! وهو ـ اعني هذا الباحث ـ معرض بعد ذلك كله للنقد بحق وبغير حق :

ـ عنتا باطلا وظلما ـ

اما لنقص الوثائق واما من جانب بعض الادباء قياما بحق انفسهم ، شنشنة المعاصرين ، وهذا ما نلاحظه فيمن تصدى لترجمة معاصريه قديما وحديثا ، ومن ذلك ما يروى عن الامام الذهبي ومعاصره ابن بصخان (٤) ، وما كان بين السيوطي والسخاوي من تهاج عجيب (٥) .

ولا ريب في انه يجب قبل السعي في اي بحث علمي واسع ـ كتاريخ الفكر المعاصر ـ ان يسبق بعملية تجميع للوثائق من مظانها التي اشرنا اليها آنفا ، وتجميع الوثائق ونقدها ـ الهورسطيقا عند الافرنج ـ عمل جليل لا شك في قيمته ، اذ على نتائجه يبني الباحثون نظرياتهم ، لكننا نلاحظ ان بعض القائمين على هذا العمل لا يقتصرون عليه بل يجمعون اليه بعض الاحكام النقدية والتاريخية الجازمة التي تحتاج الى بصر دقيق واحاطة واسعة بموضوعها ، ومثل هذه الاحكام كنا نرغب ان يخلو منها كتاب الاستاذ الجندي ، فالكتاب امتداد لموسوعة،

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ج١ص ٤١٤ ط مصر ١٣٧٢ (٢) من اجمل صور الاخلاص في اظهار هذه الحقيقة ما قاله المستشرق الطيب الذكر باول كراوس في مجلة الثقافة (ع ١٥ من جمادي الاخرة ١٣٦٣) : « لعمري اني اغار من هؤلاء الافرنج غيرة على ان تكلفوا ـ واي كلفة ـ اخراج آثار جميع ادبائهم ومفكريهم في مجموعات كاملة تشمل كل ورقة مما خرج من تحت ايديهم ، في نشرات منقحة مصفاة لا غبار عليها ...الخ » . وانظر اذا شئت ـ ما كتبه المستشرق الاستاذ فرانز روزنتال في كتابه عن « مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي » ص ١١ ـ ١٢ من الترجمة العربية . (٣) اخرجه الشيخان (٤) الاعلان بالتوبيخ ص١٠٢ ـ ١٠٥ و ١٣٥ ـ ١٣٦ ط بغداد ١٣٨٢ . (٥) البدر الطالع ج١ص ٣٢٩ ـ ٣٣٤ ط مصر ١٣٤٨ .

وعمل الموسوعات الاول الجمع والتنظيم والتهذيب ـ كما اشار اليه المؤلف في مقدمة كتابه ـ وليس اصدار الاحكام ولما تكتمل وثائقها وأدوات بحثها. وقبل ان نضرب امثلة من هذه الاحكام نشير بكلمة موجزة الى موضوع الكتاب .

فالكتاب يترجم لبضعة وثلاثين اديبا ومفكرا من ابناء هذا القرن وممن لمعت اسماؤهم بعد الحرب الكونية الثانية في مصر والعراق والشام والمغرب ، فيذكر موجزا من سيرة كل كاتب ويعدد بعض ما ساهم فيه في بناء الفكر ، ويعرض بعض آرائه بشيء من التفصيل .

نعود بعد هذا التعريف الى ذكر بعض ما راينا فيه خروجا على الطابع الموسوعي وما أدى اليه هذا الخروج من آراء جانبت الصواب وركب فيها المؤلف متن الشطط ، وخلت من الحيطة العلمية .

١ ـ واول ما يصادفنا من ذلك قول المؤلف في المقدمة (ص ٥) : « ومنذ اواخر الحرب العالمية الثانية الى اليوم لا تزال صورة الادب العربي كله لم تكتب ... » ، وهذا التعميم واضح البطلان ، ذلك ان الكتب المؤلفة عن الادب بعد هذه الحرب كثيرة لا تخفى على القارىء المطلع لقرب العهد بها ، ولو قال المؤلف : « صورة الادب العربي كلها » لكان اقرب الى الدقة .

٢ ـ ومن ذلك ايضا قول المؤلف (ص ١٩) ان الاستاذ ابراهيم الابياري : « اول من شق طريق التحقيق العلمي للمخطوط العربي » ، وهو زعم خطير باطل من غير وجه . فالمستشرقون قبل الاستاذ الابياري باجيال قد شقوا طريق التحقيق العلمي للمخطوطات العربية ، ومهما يكن القول في المستشرقين وفضلهم (٦) فالفضل الذي لا مرية فيه لهم انما هو في التحقيق العلمي ، وبعد المستشرقين سلك طريق التحقيق العلمي عدد من الشرقيين كشيخ العروبة والاستاذ عبد العزيز اليمني قبل ان يلج الاستاذ الابياري ميدان التحقيق . هذ من جانب ، والجانب الآخر : أننا لا نرتضي منهج الاستاذ الابياري في نشره بعض المخطوطات كما فعل في نشرة « نهاية الارب » للقلقشندي (٧) (لا النوري) ، وشرح ديوان المتنبي المنسوب للعكبري (٨) خطا ومما يؤسف له ان ينشر ديوان شاعر كالمتنبي في مثل هذه الصورة المزرية فلسنا نسلم له فيها بالتحقيق العلمي أصلا ، بله ان يكون شاقا لطريق تحقيق المخطوط العربي .

٣ ـ ومن ذلك قول المؤلف (ص ٤٣) ان كتاب الاستاذ احمد الشرباصي « في عالم المكفوفين » كان الاول من نوعه في الدراسات العربية ! وهو زعم لا أصل له ، ويكفي ان يقارن من شاء بين كتاب الاستاذ الشرباصي ـ مع احترامنا لما قام به من جهد ـ وكتاب الصلاح الصفدي (٦٩٦ ـ ٧٦٤) : « نكت الهميان في نكت العميان » (٩) لينتهي الى ان الاستاذ الشرباصي مسبوق ، ومن عجب ان تكثر مثل هذه الاحكام الجازمة : « هذا اول كتاب من نوعه ... » و « هذا ميدان جديد ... » وهذا وهذا ... كأن مخطوطات المكتبة العربية قد طبعت جميعا ، ونظم ما طبع في فهارس دقيقة مكتملة فلا تغيب شاردة ولا واردة على من اراد ، وهيهات أيهات ! وتأمل ، فالاستاذ محمد عبد الغني حسن ـ وهو المعروف باطلاعه الواسع على مصادر الادب العربي وتاريخه يقول في كتاب له (١٠) ان ديوان « أنات حائرة » للشاعر الاستاذ عزيز اباظة اول ديوان افرده شاعر في رثاء زوجته في الادب العربي كله ! مع ان ابن جبير (٥٣٩ ـ ٦١٤) الرحالة المشهور قد سبقه بقرون فجمع في ديوانه « نتيحة وجد الجوانح في تابين القرين الصالح » قصائده التي رثى بها زوجته أم المجد . وحسبك هذان باعثين على الحذر والحيطة قبل اصدار مثل هذه الاحكام .

٤ ـ ومن تلك الاحكام التي جاءت جازمة مؤكدة ما جاء في (ص ٦٢) فقد قال المؤلف ان كتاب الدكتور احمد شلبي في « تاريخ التربية الاسلامية » كتاب في موضوع مبتكر لم يسبق فيه بمؤلفات او دراسات، متابعا ذلك الدكتور شلبي نفسه في مقدمة كتابه ، وكأني به لم يعلم بكتاب الاستاذ خليل طوطح « التربية عند العرب » (ط بيت المقدس ١٩٣٥م) ، وكتاب الدكتور احمد فؤاد الاهواني : « التربية في الاسلام» (ط مصر ١٩٤٥م) ، وكتاب المرحومة السيدة اسماء فهمي : « مبادىء التربية الاسلامية » (ط مصر ١٩٤٧م) ومقالات المرحوم الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف المتصلة في المجلدين السابع والخمسين والثامن والخمسين من مجلة المقتطف (مصر ١٣٣٨ و ١٣٣٩) ... الخ .

وقد اخترنا هذه الاحكام التي جانبت الصواب نموذجات من اول الكتاب ، وليس المجال بمتسع للاستقصاء .

ولم يخل الكتاب في مجاله الاصيل ـ المجال الموسوعي ـ من هنات مردها في الغالب الى التعجيل وعدم التحقيق، وقبل ان نعرض نموذجات منها ، نلاحظ ان المؤلف قصر كثيرا في ايراد سير من اراد الترجمة لهم فجاءت مقتضبة ، كما اغفل الاشارة الى بعض المهم من مؤلفاتهم التي تقوم شهرة كثير منهم عليها ، وهاتان ثغرتان لا يصح ان يوجدا في كتاب موسوعي .

١ ـ ٢ فمن هذه الهنات ما جاء في (ص ١١) من « ثقة القارىء المثقف التي لا حد لها » بأمانة التحقيق العلمي في ما ينشره الاستاذ محمد ابو الفضل ابراهيم من مخطوطات ، ومع اعترافنا بفضل ابي الفضل لا نتفق مع المؤلف في ثقة القارىء التي لا حد لها ، ويكفي ان يطالع هذا القارىء مقدمة « المزهر » (ط دار احياء الكتب العربية بمصر) الذي اشترك الاستاذ ابو الفضل في تحقيقه ليرى مقدار التحقيق العلمي.

ومن هذه الهنات قول المؤلف في حق الاستاذ ابي الفضل ايضا انه « تجرد لهذا العمل (يعني احياء التراث) وتوفر عليه وجعله كل مشغلته خلال ليله ونهاره » ، مع انه يقول في موضع آخر : « ان له عددا من الدراسات التي اضاف بها جديدا بلغت مجلداتها اربعة عشر مجلدا » .

٣ ـ ٥ ومن ذلك ما جاء في (ص ٢١) ان الاستاذ ابراهيم الابياري قام بتحقيق طبعة دار الكتب المصرية من الاغاني ومسالك الابصار ، وهذا وهم فطبعة الدار من الاغاني ـ وقد صدر منها ستة عشر مجلدا ـ اشترك في تحقيقها المرحوم الاستاذ احمد زكي العدوي ثم الاستاذان احمد زكي صفوة وعبد السلام هارون (١١) ومسالك الابصار لم يطبع منه سوى مجلد واحد بتحقيق شيخ العروبة المرحوم الاستاذ احمد زكي باشا (سنة ١٩١٤م) .

وجاء في الصفحة ذاتها ان الاستاذ الابياري حقق « التبيان للعكبري في شرح ديوان أبي تمام (كذا) » والتبيان ـ المنسوب خطأ للعكبري وليس له كما أشرنا اليه آنفا ـ في شرح ديوان المتنبي كما يعلمه العالمون ، ولم ينفرد الاستاذ الابياري في تحققيه بل شاركه في ذلك الاستاذ عبد الحفيظ شلبي والمرحوم الاستاذ مصطفى السقا .

وفي الصفحة ذاتها ان الاستاذ الابياري اشترك في تحقيق « الحيوان » مع الاستاذ عبد السلام هارون ، والحق ان الاستاذ هارون انفرد بتحقيقه في طبعتيه (ط الحلبي) عام ١٣٥٦ ثم عام ١٣٨٥ .

٦ ـ ومن ذلك تعجبه مما ليس بعجيب في ترجمة الدكتور احمد محمد الحدفي ص ٢٧ و ٢٨ .

---

(٦) عقد الاستاذ نجيب العقيقي (المستشرقون ص ١١٢٢ ـ ١١٦٦ ط مصر ١٩٦٥م) فصلا أطنب فيه في فضل المستشرقين ، ولسنا نسلم له كل ما فيه . (٧) ط الشركة العربية ١٩٥٩م بمصر . (٨) ط الحلبي بمصر ١٣٥٦ والطبعة الثانية ١٣٧٨ . (٩) تحقيق الاستاذ احمد زكي باشا ط مصر ١٣٢٩ .

(١٠) « معرض من الادب والتاريخ الاسلامي » ط الاعتماد بمصر ص ٤٧ ا ـ ١٥٤ . (١١) في الطبعة التي اصدرتها اخيرا وزارة الثقافة بمصر ـ عن طريق التصوير ـ اشترك الاستاذ الابياري في تحقيق ترجمة واحدة اضيفت للمجلد السابع ، وكانت مما ضمه المجلد الحادي والعشرون في الطبعات السابقة .

٧ ـ ومن ذلك (ص ٤١) تاريخه وفاة امير البيان شكيب أرسلان ـ نضرت عظامه ـ بعام ١٩٤٨م والحق انه توفي في سنة ١٩٤٦م ، واذا كان من المعقول الاختلاف في تاريخ وفاة الاسلاف الذين تقادم بهم العهد فليس من المعقول ولا المقبول ان يختلف في حوادث لم يمض عليها غير سنيهات قليلة . وفي كتاب موسوعي .

٨ ـ ومن ذلك (ص ٧٢) نسبته تأليف « المثل السائر » للدكتور بدوي طبانة ، وهو من تاليف الضياء ابن الاثير وتحقيق الدكتور طبانة.

٩ ـ ومن ذلك (ص ٩١) قوله ان تاريخ المغرب وعلمائه وحضارته كان مجهولا وضعيفا عندنا ـ وفي المشرق ـ حتى عام ١٩٥٤م حينما قام الاستاذ خير الدين الزركلي بزيارة المغرب والكتابة عن اعيانه ، ونتـرك للقارىء الحصيف ادراك مبلغ ما تورط فيه المؤلف سعيا الى الثناء على جهد الاستاذ الزركلي ، ونحن نعلم ان الاستاذ الزركلي لا يطربه ان يثني عليه بما ليس فيه ، وانه ليعلم ان كتاباته في اعلام المغرب لا تعد شيئا كبير الشأن الى الحد الذي ذكره المؤلف اذا ما قيست بمـا كتبه سواه قبل هذا التاريخ وبعده .

١٠ ـ ومن ذلك ما جاء في (ص ٩١) ان همنغواي نال جائزة نوبل على قصته « لمن تقرع الاجراس » ، والحق انه نالها في سنة ١٩٥٤ م على قصته « الشيخ والبحر » التي نقلها الـى العربية الاستاذ منير البعلبكي بلغة مشرقة ، لكنه اغرب فجمعها مع قصة همنغوي « تلـوح كلمنجار » في مجلد واحد ، فاعجب له يجمع الضدين في اهاب واحد ! ولعله اخذ بقول ابي الطيب :

وبضدها تتبين الاشياء .!

١١ ـ وفي الصفحة ذاتها يقول: التعريب اصطلاح افضل وادق من الترجمة ، وهو في رأينا ليس بافضل ولا ادق ، ومع انه لا مشاحة في الاصطلاح ، فقد استقر الاصطلاح منذ دهر عند فقهاء العربية ان التعريب يعني استعمال الكلمات الاعجمية حسب لفظها الاصلي بتغيير كبيـر او قليل يلحقه ، نحو فهرس معرب فهرست وفالـوذج معرب بالودة ، والترجمة تعني نقل التعبيرات والالفاظ بمـا يقابلها فـي العربية . فاصطلاح الترجمة افضل وادق واوفى بالمقصود .

١٢ ـ وفي ص ١٥٨ يقول ان الدكتور عمر فروخ ألف دراسة عـن « ابن ماجد » صاحب السنن ، والحق انه كتب دراسة عن « ابن ماجد» الفيلسوف المعروف عند العرب والافرنج .

١٣ ـ وفي ص ١٥٩ يقول ان الدكتور عمر فروخ يـرى ان بذور التمثيل عند العرب تظهر في احاديث ابن خلدون (كـذا) والمقامـات ورسالة الغفران وقصة عنترة والف ليلة . وهو يقصد احاديث ابن دريد كما يعلمه العالمون (١٢) . على ان هذا غير مسلم تماما للفرق البعيد بين ما ذكره المؤلف ـ نقلا عن الدكتور فروخ ـ وبين مفهوم التمثيل ، وقـد عثر العاجز ـ كاتب هذه السطور ـ على نص يكشف بما لا يدع مجـالا للشك عن بعض بذور التمثيل عند العرب ، فقد نقل ابن عبد ربه (١٣) بسنده ان صوفيا فـي زمـن المهدي كـان يجمع اليـه بعض الصبية ، ويتمثلون موقف الحشر ثم يمثل كل صبي دور احد خلفاء المسلمين فيثني عليه الصوفي ـ متقمصا شخصية المحاسب ـ بما هو أهله او ينتقده ، فيبدأ من ابي بكر حتى ختام دولة بني امية ، وهو يمتدح او ينتقـد ، حتى اذا أتى الى دولة بني العباس ، وقيل : هذا ابو العباس السفاح، قال : بلغ امرنا الى بني هاشم ! ارفعوا حساب هؤلاء جملة واقذفوا بهم في النار جميعا !

١٤ ـ ومن ذلك (ص ١٩٤) تاريخه لمجلة المنار فذكر انها استمرت من عام ١٨٨٩ حتى عام ١٩٣٧م ، والحق ان اول اعدادها صدر في ٢٢ من شوال ١٣١٥ (١٧ من مارس ١٨٩٨ م) ، وصدر العدد الاخير (ج٥ من م ٣٥) في سلخ ربيع الآخر ١٣٥٤ (يوليو ١٩٣٥م) قبل انتقال الشيخ رشيد رضا محررها الى الرفيق الاعلى بنحو من شهر .

١٥ ـ وفي (ص ٢٠٥) نسب تأليف « ايمان العرب في الجاهلية » الى الاستاذ محب الدين الخطيب ، وهو لابي اسحاق النجيرمي مـن رجال المائة الرابعة، وقد طبعه الاستاذ محب الدين في مطبعته السلفية العامرة في عام ١٣٤٣ . ومن الكتاب نسخة خطية فـي مكتبة شيـخ الاسلام احمد عارف حكمة الله بالمدينة المنورة (١٤) ولولا ضيق المجـال لذهبنا الى الاستقصاء وحسبنا هذه النموذجات .

اما عن اخطاء اللغة والنحو والصرف والتحريف والتصحيف ومخالفة الارجح واتباع المرجوح واستعمال اللغات الشاذة والضعيفة وترك اللغة الفصيحة العالية فحدث ولا حرج ، فذلك مما لا تكاد تخلو منـه صفحة واحدة من صحف الكتاب ، شنشنة نعرفها من أخزم ، فهـي ظاهـرة واضحة في كل كتب المؤلف خاصة كتابه « اللغـة العربية بـين حماتها وخصومها » الذي دافع به عن العربية دفاعا حارًا !! وفي الكتاب الذي نعلق عليه في مقالتنا هذه احصينا مئات ـ اي وحقك مئات ! ـ ولـولا امتداد المقالة وضيق المجال لاتينا منها بطرف تطرب القارئين ، وتزعـج روح سيبويه وشيخه وتلاميذه وحزبه اجمعين ! والحق انه لولا طرافـة الكتاب وما فيه من علم نافع طريف لكان في مثل تلك الاخطاء مانعا اي مانع من الاستمرار في قراءة الكتاب . هذا مع اننا مـن اشد الناس تحرجا في تخطئة الكاتبين ، ذلك اننا نؤمن بقول الامام الشافعي « لسان العرب اوسع الالسنة مذهبا واكثرها الفاظا ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه انسان ... » (١٥)، وكنا ممن دعا (١٦) الى التساهل فيما لا ينقض اصلا من اصول العربية ، ولا يخالف قاعدة من قواعدها القائمة علـى اساس من الاستقراء لا قياس النحاة والمناطقة .

ومما لاحظناه في كتاب الاستاذ الجندي ان رغبة المؤلف في ايفاء من ترجم لهم حقهم من النقد جعلته يندفع في اطراء لذيذ وكلام خطابي، مهما يكن حظه من الصحة فليس مجاله كتابا موسوعيا .

وبعد كل هذه الملاحظات التي رأينا اشراك القراء فيها ولعلها تكون معينا للمؤلف على تنقيح الكتاب في طبعته الثانية ، نقول بعد هـذه الملاحظات تظهر قيمة الكتاب فيما حواه من آراء وتراجم عدد من افاضل المفكرين نقرأ لهم ونعجب بما نقرأ ولا نعرف شيئا عن حياتهم . وبهـذا الكتاب اضاف المؤلف ـ شأنه في سائر كتبه ـ لبنة في تاريخ الفكـر المعاصر وسد ثغرة في مكتبة هذا الفكر ، واتاح المجال للباحثين ليبنـوا على ما جمعه وهذبه نظرياتهم وبحوثهم .

الرياض — **عبد العزيز حمد العويشق**

(١٢) زهر الآداب ص ٢٦١ ط مصر ١٣٧٢ وانظر النشـر الفني ج١ ص ٢٢٧ ـ ٢٣٣ ط مصر ١٣٧٦، معجم الادباء ج١٨ ص ١٣١ ط الرفاعي، امالي القالي في غير موضع كما فـي ج١ ص ١٦ و ص ٢ و ص ١٠٣ ... الـخ .

(١٣) العقد ج٦ ص ١٥٢ ـ ١٥٤ ط لجنة التأليف ، ويصف ابـن عبد ربه هذا الصوفي بأنه عاقل ورع عالم فتحقق ليجد السبيل الـى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(١٤) تاريخ الادب العربي ، بركلمن ، ج٢ ص ٢٧٦ مـن الترجمة العربية . ونطمئن القارىء على ان الكتاب لا يزال موجودا في هذه المكتبة على ما حدثني به احد فضلاء المدنيين ، فنجا من مصير كثير مـن كتب هذه المكتبة النفيسة ، تلك الكتب التي عبثت بها يـد الاهمال فضاعت وتفرقت شذر مذر .

(١٥) الرسالة ص ٤٢ ط شاكر ١٣٥٨ . (١٦) في مقال لنا بجريدة الجزيرة (في الرياض) ج٢٨ من المحرم ١٣٨٩ في نقدنا كاتبا تحجـر واسعا وخطأ كثيرا من الالفاظ والتعبيرات وهـي صحيحة صحيحة صحيحة .

وراء السراب

شعر : وصفي قرنفلي ـ ٢٥٥ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي بسورية ـ مطابع الوزارة نفسها

لا ريب ان وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي بسورية تقوم بقسط وافر في مجال نشر التراث القديم وتحقيقه والتعريف به ، وتفتح صدرها في الوقت نفسه ، واسعا رحبا امام ابداعات الادباء المحدثين وتشجع مواهب الشباب منهم بشكل خاص مما يدل على تفهم عميق متفتح ، وادراك واع مخطط لمسؤولية الكلمة ودورها وفاعليتها في هذه الفترة الحرجة القلقة من حياتنا السياسية والاجتماعية والثقافية التي تتسم بالتغير والتطور السريعين ، والسير قدما نحو الافضل من أجل كينونة ووجود تسودهما العدالة والسعادة .

ولا ريب أيضا ان مدينة حمص بالذات ، وهي ما هي في النمو والازدهار الثقافي تحظى باهتمام بالغ في ميدان نشر انتاج ادبائها منهمات منهم ، ومن لا يزال على قيد الحياة، فقد نشرت مديرية التاليف والترجمة في وزارة الثقافة عندنا « آثار عبد الباسط الصوفي الشعرية والنثرية» الذي توفي في « كناكري » بغينيا ، وهو في الثلاثين من عمره ، وديوان الشاعر الحمصي المرهف الفقيد عبد السلام عيون السود « مع الريح » وكتاب « نظير زيتون الانسان » وهو مجموعة الخطب والكلمات والقصائد التي ألقيت في مهرجان اربعينه هذا بالنسبة للاموات ، اما الاحياء فقد نشرت الوزارة للقصاص مراد السباعي مجموعتين قصصيتين « الشرارة الاولى » و « الحكاية ذاتها » وللاستاذ الاديب عبد المعين الملوحي مجموعة من الكتب المحققة والمترجمة والموضوعة منها « مختارات من الشعر الصيني » و « اللاميتان ، لامية العرب ، ولامية العجم » وديوان « عروة ابن الورد » شرح وتحقيق و « المنصفات » وغيرها كما صدر حديثا عن هذه الوزارة مجموعة الشاعر الحمصي وصفي قرنفلي « وراء السراب » موضوع كلمتنا هذه .

كانت الحركة الشعرية في حمص بعد الثلاثينات ناشطة ملونة ، لدواع عديدة ، منها تيار البعث والاحياء الشعري على أيدي رفيق فاخوري ورضا صافي ومحيي الدين الدرويش ، ومنها مناواة الشعراء للاحتلال الفرنسي كطليعة للشعب ، مما فتح أمامهم مواضيع خصبة للنظم والتحميس ، ومنها تحرك المجتمع نحو بناء حضاري جديد ، ومنها مأساة فلسطين بعد النكبة الاولى وما تركته في القلوب من جروح وفي النفوس من أسى وثورة .

وكان للشعر في حمص يومئذ مدرستان ، تقليدية وتجديدية بينهما صراع ومنافسة ، وكان من زعماء الثانية بل من غلاتها ، وصفي قرنفلي .

كان وصفي رومانتيكيا بطبعه واحساسه وغربته الروحية الدائمة ، وكانت حياته في بداءتها ضربا من البوهيمية اللامسؤولة فاشتركت النزعة الرومانتيكية مع النزعة البوهيمية في خلق شاعر تصدى منذ راح ينظم الشعر عام ١٩٢٧ لمحاربة الشعر التقليدي واستطاع بعد جهاد متواصل ومعارك ادبية عنيفة شهدتها الصحافة السورية في الخمسينات شعرا ونثرا ان يرسي ما يشبه الاسسلاتجاه المدرسة الكلاسيكية الحديثة « نيوكلاسيك » وما يتفرع عنها من تيارات واتجاهات تتراوح بين الواقعية والبرناسية والرمزية ، لا في الشعر الحمصي فحسب ـ ان جازت التسمية ـ بل أكاد أقول في الشعر في القطر العربي السوري عامة ، تلك المدرسة التي تخلص الى حد ما من اللهجة الخطابية التي سادت سابقا ، واتكأت على معطيات الرومانتيكية شكلا ومضمونا وأصبحت تغني آلام الذات الشاعرة ، وتضبر باخلاص عن التجربة المعاشة وتعتمد في صياغتها على النغم الشعري الهامس ، وتتأنق في اختيار الفاظها الناعمة الهفهافة ذوات الجرس المهسهس والظلال ، وتصب في القصيدة جماع عواطفها المحترقة ، ولا تقيم للمقاييس الفنية الصلبة او العقلية الجامدة كبير اهتمام .

والواقع ان وصفي يملك موهبة ممتازة في التعبير عن خلجات النفس الانسانية والعواطف المتلهفة والاحاسيس الطاغية ، لذا فالكلمة عنده شحنة من الشعور المتدفق والصدى الرمزي المسموع في الموضوع واللفظة والصورة . غير أنه لا بد لنا ان نتساءل من أين أتت وصفي هذه الايحاءات الرمزية وكيف تسنى له أن يطعم بها شعرنا المعاصر ، وهو الذي يعد ذا اطلاع محدود على افق الشعر الفرنسي الرمزي واعلامه الكبار كبودلير ومالارميه ورامبو وفيرلين وفاليري وغيرهم ، وجوابنا على ذلك أن وصفي تابع قراءة مؤسس الرمزية الاول في لبنان الشاعر المقل ، « أديب مظهر » بعد ان أستطاب عطاءه فأخذ يقتفي خطاه ويصوغ شعره على شاكلته ، مستعينا بابداعاته الخاصة حتى تفرد بشخصيته الشعرية اثر قبسه أول ملامح الرمزية من « أديب مظهر » في مثل قوله:

وهناك في الوادي غدير تائه   متلفت بين الجبال نفور
يهفو الصباح فيستحم بمائه   وينام عند ضفافه الديجور

والخلاصة ان وصفي خلق مدرسة شعرية لها تلاميذ يستعيرون ريشته والوانه وخياله ويقلدونه في معجمه اللفظي الشفاف وفي بعض اغراضه الشعرية واستغراقاته الوجدانية ، وقراء ومعجبون ينتظرون انتاجها ، ويدافعون عن خطى التجديد والجرأة عند شعرائها .

واذا تعمقنا في قراءة وصفي ودراسته من خلال ديوانه « وراء السراب » خرجنا بالملاحظات التالية :

الاولى : فالصورة في شعره وليدة الكلمة وضلع من حروفها فهي احيانا مثقلة بالضباب مضمخة بالغموض ، واحيانا اخرى صافية كجبهة الطفل مشرقة كالصباح الجميل . وهو في هذين النوعين من الصورة مخلص للصورة نفسها في بيتها الواحد بل شطره ، أبعادها وجوها وجدتها ولا يهمه ان يرسم لوحة يؤطرها بالخطوط الزغبية ، ويظهر هذا الاخلاص للصورة المفردة في قصيدته الوصفية الرائعة « صلاة » حيث يهمي فيها على صباح الربيع شوق المطور ونشوة الارض ، وحيث تتجلى حاسة النظر عند الشاعر ودقة التقاطها للصورة الفنية وشفافية رؤيتها في تداخل الالوان وصفائها : لون الصبح الازرق والبراعم الخضراء والندى الابيض ، كأنها قوس قزح :

هزني صاحبي وقال : افق   فالصبح نديان ناعم يتفتح
قم أخا لشعر ، فالقوافي عذارى   عاريات كالصبح في المرج تصدح
فتثاءبت والكرى في جفوني   وتناهضت نحوه أتارجح
فاذا الصبح في غلالته الزرقاء   ساج ينهل طيبا ويلمح
رف وانسل من براعمه الخضر   طربا ، مهفهف الخطو :فيح

وتتمتع صورة وصفي بالحركية الجسدية والمعنوية تعبيرا عن حالة عضوية او نفسية معينة . وادخال الحركة الطبيعية في التصوير الشعري ، فن صعب ، اذ يحتاج الى الالتقاء بين الالفاظ في تتابعها وزخمها كالطعن المتلاحق ، وما يقابلها من معنى حركي لتكتمل الاندفاعة ويتضح المجهود :

ومن الشاعر المدل بما يندى جبين الاحرار من بهتانه ؟
انه .. انه ، واغمدت سكيني وراء الوريد من شريانه

او :

فتن تقول : ـ هنا ، وتومىء فتنة ، وتهم أخرى

والثانية تتعلق بشخصية الشاعر ذات الابعاد الحضارية والنفسية والاجتماعية والسياسية ومواقفه من الحياة والاحياء ، فوصفي انسان متمرد رافض ، غاضب ، جموح : متمرد على معطيات العلم التي جعلت من المخلوق البشري آلة صماء ، رافض للموروثات الشرقية التي كبلت تقدمنا الاجتماعي غاضب على الزعانف التي تفكر بعقلية العصر الحجري ، جموح في التأمل والهدف . وهذه الخصائص النفسية والسمات الشخصية والاعتقادات الذاتية ، تنعكس كلها في قصيدته الخالدة « سراب » . ومن يقرأ هذه القصيدة الطويلة يقف امامها مدهوشا فهي ملحمة النفس الانسانية في صراعها الراعف ، واذا كان

لكل شاعر قصيدة كما يقول الفرنسيون فان قصيدة وصفي قرنفلي هي « سراب » . وسراب تعبير شعري شاهق عن مأساة « الفراغ والعدمية » بمعناها العميق ، ووصف تراجيدي لتهافت الانسان في عالم المادة الرخيص والدنس الوجودي ، وعرض مجسم لارتخاء الذات امام المعضلات :

ونفضت المنى فاهوين انقاضا : « الى النار يا سياط العذاب »
ان شرح الجراح جرحك يا يأس بل الموت دون هذا العذاب
يا لرجس العلوم انقى واسمى من جميع العلوم طهر الغاب
يا لفقري حرمت حتى من الدمع ومن رعشة الاسى في اهابي

لكن هذه المواقف التمردية الرافضة لا تعني سلبية وهروبا في نظرة الشاعر للانسان ، فهو عطوف عليه رفيق به ، محب لبني وطنه وقوميته العربية ، مدافع عن كيانها ، ومن هنا كثر الشعر السياسى في ديوانه عندما حاول ان يجعل قصائده هادفة تخدم قضايا السياسة والمعترك النضالي مما احالها في بعض الاحيان معنى وصياغة اشبه بافتتاحيات صحف شعرية تخلت عن الفن واشاح عنها الابداع وماجت فيها النثرية وقد لمح هو نفسه هذا التدني في الشكل والمضمون فكف عن الشعر السياسي والمنظومات النازعة قبل ان يتوقف نهائيا عن النظم ، الا ان هذا لا يلغي قيمة بعض قصائده السياسية ، ففي عدد محدود منها يرتفع فنيا الى الذروة ، ويبرهن على اصالة وجودة وشعور جماهيري :

عرب نحن والعروبة انسان شريف يستنكر العدوانا
كل تاريخنا انطلاقة احرار وشعر يستصفر العبدانا
كلما هم فاتح او غزانا ، ضاع في السفح واستطالت ذرانا
نحن معنى الربيع نورا ودفئا وازهارا ، فمن رآه رآنا
نحن معنى من الطليعة في الشعب اذا الشعب هزنا او نخانا

والثالثة تتجه نحو محاولات التجديد الجذرية في شعره فقد استطاع ان يوحد فكرة القصيدة ، ان يجعلها كلها تدور حول منطلق واحد ، لا ان يستقل كل بيت بفكرة ثم لا يربط بين الابيات وافكارها رابط او نظام كلي ، واجود مثال على هذه التجربة قصيدته «كآبة» :

عقدت هدبها على حلم ميت ولفت آلامها بابتسامة
ولوت جيدها كما لوت العنق على مرهف الشفار حمامة
ووراء الضلوع تنتحب الروح انكسارا ، ذبيحة مستضامة
ماتت الذكريات الا ظلالا ، حضنت قلبها ولمت حطامه
يبس الدمع في الجفون وغض النظر الميت لا يرى ما امامه

واستطاع ايضا ان يميز غزله بالبوح الحواري وكثرة الالتفات والمخاطبة ، ثم السؤال وانتظار الجواب ، بين جمل معترضة متكررة بجمال وحيوية ، وهذه الحوارية الشعرية ، إن صح التعبير ، تكاد تكون ميزة عرف بها وصفي ، من دون شعرائنا جميعا ، ولذا يصعب تقليدها :

على شفتيك متكأ المعاني وفي الهدبين قافية وبحر
فاما قلت برعم كل حرف وماج فهل سقيت اللفظ عطر ؟

عاش وصفي حياته مرتحلا « موكلا بقضاء الله يذرعه » من قرية الى اخرى ، ومن بادية الى بادية ، ومن مشروع الى مشروع بحكم وظيفته في المساحة والري ، فولد فيه هذا الترحل الدائم صفة القلق وعدم الاستقرار حتى بالنسبة للافكار التي يعتنقها ، الا ان هذا السفر الطويل المستمر ـ من زاوية ثانية ـ اعطى تجربته الشعرية فيضا من التنوع والحرارة وكان ان الهبت طبيعة المناطق التي يتنقل فيما بينها ، من جفاف ويبوسة وبوار الى جنان خضراء ثرة المياه ، مخيلته الطليقة ، فاختزنت صورا ابدع الشاعر في استغلالها بالوصف على نوعيه الخارجي ـ الطبيعة ومعطياتها ـ والداخلي ـ النفس وانفعالاتها ـ ومع ان عمله انهك صحته وجسده وابعده عن اصدقائه واهله ودنيا الحضارة الآلية التي يعيشها الناس وما فيها من ترف ورفاه ، فانه يعتز به اعتزازا اصيلا ، لانه مثل عمل الكثرة الكاثرة من هذا الشعب الذي يسعى وراء اللقمة بالدم المكدود والعرق المتساقط ، وهو ابن الشعب ، عايش الصميمي المعذب من طبقاته :

انا للشعب ما حييت وللدرب يمينا لا تعرف التاويلا
انا للكادحين منهم وفيهم سل جبالا ذرعتها وسهولا
بي من البؤس ما بهمومكاني بينهم حيثما تولوا سبيلا

الا ان وصفي عاش حياته عريضة عميقة طويلة ، بكل دقيقة تمر ، وصباح يشرق ، ومساء يهوم ، ونرجيلة تقرقر ، امرأة ، ومنظر سحري ندي له على كتف « الميماس » ، وحلقة من الاصدقاء الاوفياء حول منضدة يدور فيما بينها حوار في الشعر ، والسياسة ، وصبوات النفس ، وآمال المستقبل ، ولكن اجمل حديث ، والصقه بالشاعر كان حديث الحب والصبابة ، فهو يميل الى المرأة ، ويرى فيها عالمه الاسمى الذي يخلصه من ادران عالمه اليومي وارهاق الغبار ووهج الشمس ، ولغة الارقام والحسابات الهندسية بعد نهار بل قل نهارات مديدة ، وينقله الى سحر العطور ، وغلالات الحرير ، وهمس النشوة :

في السفح قافية ، ادغدغها ، ودون الركن عشرا
وعلى الشفاه تقطر (الكرز) اللذيذ ورف عطرا
انا شاعر القبلات بيضا ، ما لهن صدى وحمرا

وبعد .. هذه نبذ في خصائص وصفي قرنفلي الجمالية والموضوعية استخلصتها من قراءتي لديوانه ، وهي تدل ، لا شك ، على شاعر متميز ، كبير ، كان زعيم مدرسة ترى في الثورة على كل المخلفات البالية ، منهجا في حياتها وارهاصا بعطاءاتها ، وقد استطاعت ان تفرد ظلها على الشعر اكثر من ثلاثين سنة وادت دورها كمرحلة تجاوزها الشعراء الجدد الذين اصبحت لهم هموم متغايرة ، وتطلعات عصرية ، في الشكل والمضمون والسلوك الاجتماعي والدور القيادي .

حمص — **ممدوح السكاف**

●

انســــان

مسرحية شعرية ـ تاليف سليمان العيسى ـ ١١١ صفحة ـ منشورات دار دمشق

من مطبوعات وزارة الثقافة والارشاد القومي « انسان » وهي مسرحية شعرية في اربع لمحات ، استمد سليمان العيسى مادتها الرئيسية من التاريخ العربي ، ومن بطون كتب الادب بالذات كما استمد مادة مسرحيته الشعرية الاخرى « جبلة بن الايهم » .

قرأ في كتاب الاغاني فصادفته قصة من قصص الكرم العربي اثارت اهتمامه واسرت لبه وكان السبب في ذلك ان بطلها انسان من عامة الشعب ، لم يتقلد منصبا ولم يحتل في دنيا الرتب مكانة ذات شأن ، رجل فقير لا يملك قوت يومه يعمل شرطيا في حرس الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور ، وما كان كتاب الاغاني ليذكر قصة رجل كهذا لولا ارتباطها المباشر بالامير المعروف معن بن زائدة الشيباني ، الذي غضب عليه بنو العباس فطاردوه واهدروا دمه .

ضرب المثل بكرم معن فاحتل الصدارة في ميدان الجود ولكن احدا لم ينتبه الى من هو اكرم منه كما انتبه الاستاذ سليمان العيسى شاعر الحرية الانسانية ، فمعن ـ على جوده ـ لم يقدم ماله كله لطالبي معروفه ، كلا ولا جزءا كبيرا منه ، انما كانت اعطيات قليلة من ثروة كبيرة ، اما هذا العبد الاسود ، بطل مسرحية « انسان » فقد قدم ماله كله للامير معن ، وبالاضافة الى ذلك اطلق سراحه ، وهو

طلبة امين المؤمنين !

ملخص القصة ان بني العباس زمن المنصور جدوا في طلب معن ابن زائدة لسبب من الاسباب ففر هذا متخفيا وظل مختبئا في بيت احد اصدقائه الى ان احاط جند الخليفة بالبيت ، عندها تنكر مرة اخرى واتجه نحو الصحراء . وقبل ان يتمكن من الابتعاد ادركه عبد اسود عرف انه طلبة امير المؤمنين : وحاول معن النجاة فلم يفلح ، فقدم للعبد عقدا نفيسا عله يخلي سبيله ، وهنا يسأله العبد سؤالا محرجا ، يريد ان يعرف هل قدم ماله كله في يوم من الايام لاحد العافين . فيجيب معن بالنفي ، ويستمر العبد متدرجا في سؤاله الى ان يتيقن ان هذا الامير الذي تغنى بكرمه الشعراء لم يسبق له ان قدم عشر ماله لاحد ، هنا اعاد العقد لمعن وخلى سبيله قائلا :

بيديك عقدك والنجاة ..

هيا انطلق لمح البصر

في الناس اجود منك . لا يشمخ على الطين القمر !

واذا عدنا الى حكاية الزنجي هذا نلاحظ ان شاعرنا حاول التقيد بالتاريخ تماما فقد ابقى جوهر القصة ـ كما وردت في الاغاني ـ ولم يضف اليها من خياله الا ما كان من تصويره لجانب من حياة اسرة الزنجي ـ فقد عرض علينا الاسود بين اهله يلاعب اطفاله ويضاحكهم ، كما صور لنا كيف تتحمل المرأة دائما عبء تدبير شؤون البيت واعداد الطعام وتتأذى من صخب الاطفال ! لقد كانت « ياسمين » اصغر بنات الزنجي تبعث المرح والسرور في نفس الاب اما الام التي عانت من ضجيج الاطفال طول النهار فان تلك الاصوات كانت تؤذيها .

وحين نعيش مع الزنجي في بيته نتذكر شاعرنا « سليمان » وابنته « بادية » .. نتذكر كيف كان يمضي ساعات من المرح وهو يلاعبها ويستمع الى غنائها . وكيف كانت الام تتضايق من الاب وابنته .. ان حياة الزنجي في بيته تحكي حياة سليمان العيسى كما رواها هو في قصيدته « بادية » .

وحين نصغي جيدا الى حديث بطل المسرحية لا نسمع حديث ابن الشعب ولا فلسفة ابن الشعب ، ويبدو لنا اننا نسمع حديث فيلسوف بعيد التفكير ، فهو ليس الانسان البسيط الذي تفرضه احداث المسرحية . وانا لا اعني انني اضن على هذا الاسود بالقيم الانسانية الرفيعة فهي فطرة الانسان السليم ولكن الذي يبدو لي مخالفا للواقع هو هذه الفسلفة الفكرية تصدر عن شرطي يعمل في مطاردة الناس :

انه القدر ... وصد رغم الحجب الكثيفة البشر

وصدهم في رحلة المجهول ، في السفر

يبكون يضحكون ، يشقون يسعدون

نفوسنا الاخر اخوتنا البشر

ان ما ورد في هذه الابيات عن الوحدة الانسانية والمساواة في ظروف القدر الرهيبة بين الناس ناتج عن تفكير شاعرنا الطويل واستنتاجاته ، وليس من السهل علينا ان نتقبله كلاما عفويا يصدر عن انسان من عامة الشعب يمضي يومه في الكفاح من اجل الحصول على لقمة العيش .. ان الفرصة التي اتيحت لاستاذنا سليمان لكي يفكر في هذه الاشياء لا يمكن ان تتاح لرجل عامل يصل الى بيته مكدودا ، وكل همه ان يحصل على قسط من الراحة وساعات قليلة من النوم الهانيء .

والحقيقة ان فكرة المسرحية نبيلة جدا لان الشاعر يريد ان يفهمنا ان الفضائل مقومة بين الناس جميعا ولم يخص الله بها طبقة دون طبقة بل ربما كانت اكثر انتشارا بين الناس البسطاء لانهم اقرب الى الفطرة الانسانية السليمة من سواهم .. وشيء اخر هو اننا ما دمنا في عصر المساواة فلماذا تهمنا الشخصية المعروفة ! اوليس جديرا بنا ان نبحث عن الانسان المثالي مهملين اسمه ولقبه ، وحري بنا ونحن رواد المساواة ان يهمنا جوهر الانسان . وتبعا لهذه الفكرة فالاستاذ سليمان لا يطلق على الزنجي اسما معينا ويسمى المسرحية باسم صاحبها العام « انسان » !!

واذا كنا نبحث عن التسمية لكي نقرب ما نكتب من الواقع فشاعرنا يهمل التسمية قربا من الواقع الذي يريده : الواقع الانساني العام .

ان قصة الكرم العربي ليست جديدة سواء اكان هذا الكرم بين السوقة ام بين السادة .ويبقى اجمل ما في المسرحية هذا الشعر الغنائي الرائع الذين يشدنا اليه شدا . فنحن نقبل على « انسان » لا رغبة في حبكة قوية او شخصيات واقعية استطاعت ان تبعث امامنا الماضي حيا ، ولكن الذي يشدنا هو شعر سليمان الوجداني الرائع اننا هنا مثلا لسنا امام زنجي يحدث زوجته عن امير عربي كريم انما نحن نصغي الى شاعر غنائي يمجد الكرم والبطولة :

وددت لو اني كنت خيط عنانه امد اساطير الخيال له جسرا

واعرفه يا عبد ، تعرفه الدنى فقد ملأ الصحراء من بأسه شعرا

يقولون : لم تندَ القفار براحة كراحته مذ وشوش الكرم الفقرا

ان الزنجي ـ كما رأينا في الابيات ـ يريد ان يوسع قصة كرم معن فيجعلها اسطورة خيالية يتحدث بها العالم وليست في الحقيقة الا جسرا عريضا يعبره معن في خيال « سليمان » وربما وقفنا قليلا عند الابيات التي تصور وضاعة الانسان الذي يغني سرورا في مآسي الآخرين والتي تشير الى شاعر بني العباس سريف الذي قال قصيدة من الشعر فوق جثث الضحايا من بني امية :

ما ابشع الانسان يملأ ، من نجيع اخيه كوبه

ويقول شعرا بعد ذاك ... كانما غنى حبيبه

والحقيقة اننا نخرج من المسرحية معجبين لا لانها نالت الشروط الفنية ، كما يريد نقاد المسرح ، فحازت على رضانا بل لان « انسان » سليمان العيسى الشاعر انسانا الواقع الفني للمسرح وجعلنا نعيش معه في اجواء وجدانية تبصر في الانسان جوهره فقط وتتمرد على القشور الزائفة .

دمشق سكينة الشهابي